

كتاب شهري يصدر عن
رابطة العالم الإسلامي

حرب القوقاز الأولى

دكتور
أحمد موسى الشيشاني
جامعة الملك سعود - الرياض

السنة الثالثة عشرة
شعبان ١٤١٥هـ - العدد ١٥٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

على الرغم من أن الشعوب القاطنة في بلاد القوقاز والواقعة الى الجنوب من الاتحاد السوفياتي السابق هي شعوب اسلامية بالدرجة الاولى خاصة في منطقة شمال القوقاز الممتدة في الاراضي الواقعة مابين بحر قزوين إلى الشرق والبحر الاسود إلى الغرب، إلا أن العالم العربي والاسلامي جهل الكثير عن هذه الشعوب الاسلامية وصراعها البطولى في القرن التاسع عشر ضد قوات القياصرة الغازية لمنطقة القوقاز الشمالى الاسلامية وذلك إبان التوسع الروسي الاستعماري باتجاه الجنوب والذي بدأ على شكل مناوشات في النصف الاخير من القرن الثامن عشر ولكنه اتخذ صورة الهجوم الشامل في بداية العشرينات من القرن التاسع عشر حيث استطاع الروس احتلال مايعرف الآن بأراضي أذربيجان وأرمينيا وتم طرد جيوش إيران الصفوية وتركيا العثمانية من هذه المناطق حيث كانت هاتان القوتان تتقاسمان هذه الاراضي بينهما قبل أن تنهزم قوات البلدين وخلال حرب دامت ثلاث سنوات فقط «١٨٢٦ - ١٨٢٩م» واجبرت إيران الصفوية على توقيع معاهدة تركمنتشاي كما اجبرت تركيا العثمانية على توقيع معاهدة أدرنه حيث تخلت «الدولتان لروسيا القيصرية عن جميع القوقاز الجنوبي بأكمله إضافة إلى ميناء دربند على ساحل بحر قزوين على الجانب الايراني وميناء أنابا على ساحل البحر الاسود على الجانب التركي إضافة إلى شبه جزيرة القرم التي كانت خاضعة للاتراك وتخلوا عنها لروسيا القيصرية بقوة

السلاح . كما ونجح الروس في إخضاع الشراكسة في المنطقة الغربية من شبه جزيرة القرم وهم شراكسة الاديفة إضافة لاخضاع شراكسة القبارطاي في الشمال الغربي للقوقاز الشمالى . وهذه المرحلة الاولى أما المرحلة الثانية فهي الاندفاع الروسي في منطقة القوقاز . هي مرحلة احتلال القوقاز الشمالى حيث يعيش الداغستان والشيشان والانجوش حيث تحولت ماكان جنرالات الروس يظنونه نزهة عسكرية قصيرة إلى حرب ضروس امتدت إلى ثلاثين سنة من القتال المتواصل والشرس بحيث أطلق الروس في كتب التاريخ العسكري الخاص بتوسعهم نحو الجنوب على هذه الحرب اسم حرب القوقاز إضافة إلى إسم «حرب الجبليين» والذي استخدم في الاحاديث الخاصة في روسيا القيصرية عن «حرب القوقاز» . أما دول أوروبا والتي وقفت تراقب بحذر «ودهشة بالغة» هذه الحرب فقد أطلقت عليها اسم «حرب المريدين» نسبة إلى الحركة المريدية الاسلامية والتى انطلقت من بلاد الداغستان كحركة دينية سياسية تدعو لمقاومة الروس الكفرة أو «الغازقي» باللغة الشيشانية تحت راية الاسلام الخضراء والتي حملها مقاتلو الحركة المريدية وكانت حرب جهاد بطولية أثبتت للعالم أجمع بأن الاسلام عندما يكون حقيقيا وفي سبيل الله وبعيدا عن «العلمانية» والنفاق السياسي فإنه قوة لا تقهر حتى عند الهزيمة الميدانية فالشهادة فوز بل وأغلى فوز . صحيح أن الحركة المريدية هزمت في النهاية ولكن بعد أكثر من ثلاثين سنة من القتال الضاري وضد أقوى قوة عسكرية في أوروبا والعالم في ذلك الوقت ، وقد جاء نصر القوات القيصرية غاليا ومكلفا للغاية حيث تقدر بعض المصادر التاريخية لهذه الحرب خسائر القوات القيصرية

في بلاد الشيشان والداغستان بحوالى نصف مليون جندي هلكوا في جبال وغابات بلاد الشيشان والداغستان على مدى الثلاثين سنة التي استغرقتها الحرب لاخضاع هذين الشعبين.

وقد كان الصمود البطولى لشعب شمال القوقاز وبشكل خاص الشيشان والداغستان أمام جيوش القياصرة المتفرقة في السلاح والعدد مصدر إلهام لكثير من المؤلفين التاريخيين الاوربيين إضافة إلى الكتاب والمؤلفين الروس أنفسهم وذلك لكتابة كم كبير من المؤلفات التاريخية عن «حرب المريدين» أو حرب القوقاز الاولى، وفي نفس الوقت، فإن الصحف الاوروبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت تخصص أعمدة وصفحات يومية لتغطية أخبار حرب القوقاز بين قوات الامبراطورية الروسية وشعوب اسلامية صغيرة لم تكن حتى شاهدت أو سمعت بشيء اسمه مدفعية أو قنابل أو بنادق آلية.

فقط بسلاح الايمان والسيف وبندقية قديمة «بندقية دك» استطاع المقاتلون المسلمون من الصمود في وجه امبراطورية مترامية الاطراف تملك التفوق الكاسح في كل شيء.

ومن المؤلفات الاوروبية والروسية الشهيرة عن حرب المريدين الكتب التالية:

١- «سيوف الجنة» للمؤلفة الامريكية لزلى بلانش.

٢- «الغزو الروسي للقوقاز» للمؤلف الاوروبي جون بادلي.

٣- «معارك القوقاز» للمؤلف الاوروبي ألن.

٤- «القوقاز» للمؤلف الروسي سيفتسشنكو «ترجم للانجليزية».

٥- «وداعاً لبحر قزوين» للكاتب الروسي مارلنسكي «ترجم للشيشانية».

٦- «بطل هذا الزمان» للكاتب الروسي ليترمنتوف «ترجم للشيشانية».

٧- «حاج مراد» للمؤلف الروسي تولستوي «ترجم للانجليزية».

٨- «في سبيل الحرية» للمؤلف والمؤرخ الشيشاني ايوزر أيدميرو.

٩- «قتلة الامم» للمؤرخ الاوروبى روبرت كونكويست.

١٠- «الشيشان» للبروفسور الالماني برونو بليتشكه.

١١- «حاجز شمال القوقاز» لمجموعة المؤلفين الاوروبيين، صدر عام ١٩٩٢م.

وللاسف الشديد، وباستثناء الترجمة التى قام بها كل من السادة حميد يونس والدكتور طه سلطان مراد لبعض المؤلفات باللغة الشيشانية والانجليزية فإن المراجع باللغة العربية حول تاريخ ونضال شعوب شمال القوقاز الاسلامية ضدروسيا القيصرية ومن بعدهم روسيا السوفياتية شحيحة وبالتالى فإن للعالم العربى «والاعلام العربي» عذره في عدم فهم الاحداث المتوالية والتى شهدتها ولاتزال تشهدها منطقة القوقاز الشمالي بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، رغم أن هذه الاحداث لها دلالات ونتائج غاية في الاهمية بالنسبة للعالمين العربي والاسلامي كما سيتبين للقارىء في نهاية هذا الكتاب.

استقلال الشيشان عن روسيا الاتحادية والاطاحة بزفياد جمسا غوردیا رئيس جورجيا الشرعي واستلام شيفارنازده الحكم في جورجيا وحرب جورجيا وأبخازيا وكذلك أحداث اوسيتيا الشمالية بين الاوستين والانجوش ماهي إلا حلقات متصلة من الصراع الابدي بين نور الاسلام المتجدد دائما وقوى الكفر والنفاق المضاد للاسلام والمسلمين.

ومن أجل اعادة صفحة مشرقة من صفحات التاريخ الاسلامى المجيد الى كتب التاريخ الاسلامي، ومن أجل أن يتنبه المسلمون الى خفايا المؤامرة الكبيرةالتى تحيكها وتنفذها القوى المناوئة للاسلام في العالم ضد شعوب شمال القوقاز الاسلامية كما فعلوا ضد شعب البوسنة والهرسك ومن قبلهم الشعوب الاسلامية في الهند والباكستان وكشمير وبورما بدون أن نسى شعب فلسطين. أقدم هذا الكتاب.

والله من وراء القصد،،،

المؤلف

الفصل الاول

تاريخ منطقة القوقاز

المكان:

القوقاز .

كلمة القوقاز كلمة سنسكريتية الاصل وتعنى الجبال البيضاء أو الجبال الثلجية .

جغرافية منطقة القوقاز:

استخدم اسم القفقاس «القوقاز - الكوكاز» منذ أيام هيرودتس وأسكيلوس ليدل على سلسلة الجبال الشامخة الممتدة عبر البرزخ بين البحر الاسود وبحر قزوين «بحر الخزر» من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي ، ويبلغ طول سلسلة الجبال الشامخة هذه نحو ٦٥٠ ميلاً يبلغ طول الجزء الجبلى الحقيقي منها نحو ٤٠٠ ميل مع حافتين تمتد الاولى منها ١٥٠ ميلاً والثانية ١٠٠ ميل إلى جوار باكو عاصمة الاذربيجان ونفوروسيسك على البحر الاسود . أما عرض السلسلة الجبلية فمتفاوتة كثيراً ولكن يقدر بنحو ١٠٠ ميل اللهم إلا في الوسط والاطراف حيث يضيق هذا العرض إلى درجة كبيرة .

حالياً : فإن اسم القفقاس يُطلق على كافةالمناطق الواقعة إلى الجنوب من إستراخان وولاية الدون في الجانب الجنوبي لروسيا الاتحادية «الفدرالية» وإلى امتداد حدود روسيا الاتحادية «والتي يرأسها يلتسين» مع تركيا وإيران وتعادل مساحة القفقاس حاليًا نحو ربع مساحة أوروبا ونحو ثلث مساحة الولايات المتحدة الامريكية .

- اسم القفقاس لا يستخدم كثيراً هذه الايام والاسماء الدارجة له

هي القوقاز باللغة العربية والكوكاز باللغة الانجليزية ولفظ «الكوكاز» هو المستخدم من قبل شعوب القوقاز كاسم لبلادهم خاصة شعوب شمال القوقاز.

الاهمية الاستراتيجية
والتجارية لبلاد القوقاز

تقع بلاد القوقاز في نهاية القسم الشرقي من البحار الدافئة والتي تمتد سواحلها لثلاث قارات هي أوروبا وأفريقيا وآسيا. حيث تفصل بحار وأنهار القوقاز بطريق مباشر أو غير مباشر كل من بحار وأنهار البحر الابيض المتوسط، وبحر إيجه وبحر مرمره وبحر أزوف والبحر الاسود. ومما يزيد من أهمية هذه الممرات المائية إستراتيجيا وتجارياً هو اتصال هذه الممرات مباشرة بقلب أوروبا من خلال مجموعة الانهار الاوربية التي تصب في البحر الاسود وبحر قزوين والتى تشمل كلاً من أنهار الفولجا والدون والدنيبر والدنيستر والدانوب. ونظراً للمزايا البحرية النادرة التي تتصف بها بلاد القوقاز فإن علماء الجغرافيا يقولون بأن الحدود الحقيقية لمنطقة القوقاز هي تلك التي تبدأ من المناطق التي تجتمع وتتركز فيها الملاحة البحرية والنهرية وتتصل في محيطها البحار والانهار وبهذا تقترب شواطئها من الاقطار العالمية الواقعة من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب وهذه ميزة لم تتوفر لحد الآن لاي بقعة جغرافية في العالم عدا منطقة القوقاز ومن يسيطر على القوقاز بحرياً يسيطر على منابع البحار والانهار في العالم. إلى جانب الاهمية البحرية فإن القوقاز تتمتع بمزايا برية لا تقل من حيث الاهمية الاستراتيجية عن مزاياها البحرية حيث إن التضاريس الطبيعية للقوقاز الجبلية قد امتدت على

شكل حزام ضيق التف حول بحر قزوين من اتجاه الجنوب نحو منطقة القفقاس ليشكل سلسلة جبال الاناضول، وبهذا الاتصال لجبال القوقاز بجبال الاناضول تكون منطقة القوقاز، وبشكل خاص القوقاز الشمالى قد أحاط بها حزامان طبيعيان من الهضاب والاراضي المرتفعة في منطقة تحتوي على ثلاثة بحار عالمية هي بحر قزوين في أقصى الشرق والبحر الاسود وبحر آزوف في أقصى الغرب. في نفس الوقت، فإن امتداد جبال القوقاز شمالاً نحو سلسلة الجبال الشاهقة في بلاد الداغستان والشيشان والشراكسة واستمرار امتداد هذه الجبال عبر هذه البلاد باتجاه الشمال نحو قارة أوروبا، أعطى ميزة برية هامة للغاية لمنطقة القوقاز الشمالى بشكل خاص لانها تصبح بموقعها الجغرافي الفريد هذا الحد الذي تنتهي فيه حدود القارة الاوروبية من الجهة الجنوبية الشرقية لهذه القارة وبهذا فإن القوقاز الشمالي هي الممر البري الوحيد لاوروبا نحو آسيا والشرق الاوسط من الجهة الجنوبية الشرقية لقارة أوروبا.

- امتداد حدود القوقاز الجنوبي باتجاه تركيا وإيران جهة شبة جزيرة القرم والبحر الاسود، وكذلك بحر قزوين وأذربيجان وأرمينيا أعطى منطقة القوقاز بأكملها ميزة كونها تضمن لمن يسيطر عليها أن يتصل بأوروبا وآسيا وأفريقيا تجارياً إضافة إلى الميزة الاستراتيجية العسكرية لها وبشكل خاص بالنسبة لجمهورية روسيا الاتحادية والتي بدون القوقاز فليس لها أي منفذ بري نحو آسيا الصغرى والشرق الاوسط.

الاطماع السياسية والعسكرية
التي تعرضت لها منطقة القوقاز

المفكرون والاستراتيجيون ظهروا بظهور الانسان والذي استخدم السكن في الكهوف في أعالى الجبال وعلى رؤوس الاشجار لينال الامان من عدو فوق طاقته كحيوان مفترس وضخم مثل الدب أو الاسد والنمر. كما استخدم قذف الحجارة من أماكن عالية كسلاح ضد من يحاول الاقتراب منه في مأمنه في أعالى الجبال وعلى رؤوس الاشجار وربما كانت حبات جوز الهند هي حجارة إنسان الغابة.

- وخلال عصور التاريخ ظهرت إمبراطوريات متعددة وفي أنحاء مختلفة من العالم وكانت هذه الامبراطوريات قائمة على القوة العسكرية في المقام الاول والاخير، وبذلك فإن المثل أو الاصطلاح السياسي الحديث والقائل بأن القوة هي الحق عرفته المجتمعات والحضارات السابقة ومارسته بدون تحفظ وعلى المكشوف وبدون «رتوش أو إفتعال أزمات مسبقة في منطقة الهدف، تمهد لتبرير الغزو وإحضار القوات».

- بإختصار. كل قوة عسكرية عالمية عرفها التاريخ إحتلت أو مرت عبر منطقة القوقاز: الاشوريون والكلدانيون والمصريون القدماء، الاغريق، الرومان، الفرس، الروم، العرب المسلمون، المغول، التتار، الاتراك الايرانيون الصفويون، روسيا القيصرية،

والبلاشفة الشيوعيون، وحتى هتلر غزا القوقاز والتي كانت أولى منطق الاتحاد السوفياتي التي غزاها الجيش الالماني في هجومه على موسكو عاصمة الاتحاد السوفياتي السابق. على أي حال، يجب أن نذكر هنا بأن روسيا القيصرية وحليفتها روسيا السوفياتية كانت الامبراطوريتين الوحيدتين اللتين سيطرتا عبر التاريخ على جميع مناطق القوقاز من الشرق للغرب ومن الشمال للجنوب.

تأثير الموقع الاستراتيجي على الاصول العرقية والانتماء الديني لشعوب القوقاز

- كان للغزوات والحملات العسكرية التي تعرضت لها منطقة القوقاز دور كبير في إحداث فروق وتباين ملحوظ بين شعوب القوقاز الحالية فيما يخص الاصل العرقي واللغة وأهم من هذا الانتماء الديني لهذه الشعوب فكل إمبراطورية إحتلت أو مرت في منطقة القوقاز تركت بصماتها في هذه الجوانب الثلاث مع ملاحظة أن درجة التأثير تعتمد على نوع ومدة ومكان الاحتلال وكذلك على طبيعة الشعوب القوقازية التي تعرضت للاحتلال على أي حال. وقبل أن نبدأ بشرح مفصل للاعراق واللغات والديانات المنتشرة في منطقة القوقاز فإن الحديث عن تاريخ الفتح الاسلامي لمنطقة القوقاز مهم للغاية لفهم جذور الاحداث في القوقاز في الماضي والحاضر حيث إن انتشار الاسلام في منطقة القوقاز له أكبر وأهم تأثير على مجريات الاحداث التي جرت على مسرح جبال القوقاز في بداية القرن التاسع عشر والتي تمثل الصراعات المتعددة حالياً فيه «السيناريو العصري» الحديث لهذه الاحداث التي وقعت في القرن التاسع عشر والتي تعتبر صفحة ناصعة البياض من صفحات تاريخ الاسلام والمسلمين في القرن التاسع عشر.

- التفاصيل المهمة لاحداث القرن التاسع عشر سوف يتم ذكرها لاحقاً حيث إنها ستلقي الاضواء على طبيعة الصراع الذي تشهده منطقة شمال القوقاز في الوقت الحالي.

انتشار الاسلام في منطقة القوقاز

رغم أن الفتوحات الاسلامية في مراحل معينة من تاريخ الاسلام تمكنت من الوصول وإحتلال مناطق معينة من القوقاز إلا أن المد الاسلامي لم يصل إلى جميع مناطق القوقاز وبشكل خاص القوقاز الشمالي الاوسط والغربي، في نفس الوقت، فإن الاحتلال الاسلامي لبعض مناطق القوقاز لم يستمر متواصلاً ولم يكن طويلاً. المناطق التي احتلها الاسلام من منطقة القوقاز شملت مايعرف الآن بأرضي أرمينيا وأذربيجان وجورجيا، والتي كانت تدعى في عهد الاسلام بإقليم كرجستان نسبة إلى أمة الكرج والتي كانت تسكن تفليس (عاصمة جورجيا حالياً) وماحولها وبهذا الاحتلال الاسلامي لهذه المناطق فإنه يمكن القول بأن جميع القوقاز الجنوبي والاوسط والذي يشمل حالياً جمهوريات أذربيجان وأرمينيا وجورجيا سقط تحت إحتلال المسلمين خلال الفتوحات الاسلامية في عهد صدر الاسلام بالنسبة للقوقاز الشمالي، فإن الاجزاء الجنوبية والشرقية للداغستان وقعت تحت حكم المسلمين وامتد الاسلام من خلال المبشرين والدعاة إلى شمال وغرب الداغستان والتي لم تقع أراضيها مباشرة في أيد الفاتحين المسلمين لانها بلاد جبلية وعرة يسهل الدفاع عنها ومن الصعوبة إحتلالها بدون إمكانيات عصرية لم تكن متوفرة للمسلمين في ذلك الوقت.

- بلاد الشيشان والشراكسة «جمهورية القيرطاي وجمهورية الاديغة» كانت المناطق الوحيدة من القوقاز الشمالي والتي لم تقع

مباشرة تحت حكم المسلمين الفاتحين كما وان بلاد الشيشان كانت البلاد الوحيدة التي لم يستطع اي فاتح تاريخي من احتلالها بينما خضع الشركس في الغرب للاتراك العثمانيون وخضعت قيارطاي في الشرق لحكم «تمارا» ملكة جورجيا العظيمة (١١٨٤ - ١٢١٢م) والتي شملت امبراطوريتها معظم اراضي القوقاز عدا بلاد الشيشان بجبالها الحصينة، والتي تعتبر تضاريسها اضافة لتضاريس اقليم افاريا في جمهورية الداغستان وجبال القيرطاي «واشهرها جبل البروز» افضل وانسب تضاريس طبيعية لشن حرب العصابات وبالتالي فانها منيعة على الفاتحين خاصة وان سكانها يعتبرون من اشجع امم القوقاز قاطبة وبشكل خاص الشيشان والذين ورغم ان اسلامهم كان من خلال المبشرين والدعاة الذين بشروا بالدين الاسلامي الحنيف في بلاد الشيشان الا انهم بقوا متمسكين به وبقوة بعد زوال الحكم الاسلامي في حين ارتدت بعض الشعوب والاقوام للدين المسيحي الذي كانت تعتنقه قبل الفتح الاسلامي.

- مصادر التاريخ للفتوحات الاسلامية تقول بأن المسلمين وصلوا لمنطقة القوقاز في القرن السابع الميلادي بينما كان «سراقة بن عمرو» يتابع فتوحاته في بلاد الكرج والارمن والاذربيجان زحف «عبدالرحمن بن ربيعة» واستولى على مدينة دريند (في جمهورية الداغستان) والتي كانت تسمى عند العرب باسم «باب الابواب» والتي تقع على ساحل بحر قزوين والذي سماه العرب ببحر الخزر. في نفس الوقت، تمكن سراقة بن عمرو من فتح مايعرف الآن بأذربيجان وأرمينيا وجورجيا في القوقاز الجنوبي والاوسط، وجعل «سراقة» عاصمته مدينة تفليس عاصمة جورجيا حالياً. ولقد دعا

المسلمون سكان المناطق الاصليين الدخول في الاسلام فاعتنق معظم سكان تلك المناطق الاسلام مع أن الفتح الاسلامي وجيوش المسلمين لم تطأ أرضهم فقد اعتنق الاسلام قبائل متعددة من الداغستان والشراكسة في الاراضي التي تعرف الآن بجمهورية الداغستان وبالتحديد إقليم أفاريا في الجزء الجبلي الغربي من الداغستان، وكذلك في جمهورية القيارطاي رغم عدم وصول جيوش المسلمين إلى بلادهم مباشرة.

- كما ان بعض الشعوب في تلك المناطق كانت ترتد عن الاسلام بعد زوال الحكم الاسلامي عنها كما حصل عند هزيمة المسلمين أمام حشود الخزر (الاجزاء الشرقية لجمهورية الداغستان) وتقول مصادر التاريخ بأنه في عهد الخليفة «عثمان بن عفان» رضي الله عنه تمكن القائد المسلم «حبيب بن مسلمة» من فتح عاصمة كورجستان تفليس للمرة الثانية ولكنه لم يوفق في فتح بقية بلاد الكرج (جورجيا) وفي عهد «هشام بن عبد الملك» أعاد المسلمون توجههم نحو دولة الخزر (على بحر قزوين) ونحو أرمينيا ولكن لم يستطع المسلمون إحتلالها إلا عام ١١٤ للهجرة حين تمكن القائد المسلم «مروان بن محمد» من إخضاع معظم القوقاز الجنوبي لحكم المسلمين إضافة إلى الاجزاء الشرقية من الداغستان.

- وقد استمر حكم المسلمين لتلك المناطق من القوقاز مدة طويلة ولكن في نهاية العصر العباسي بدأت عناصر الحكم الاسلامي تضعف في منطقة القوقاز الجنوبي والاجزاء الشرقية الساحلية من داغستان وانقسمت المنطقة إلى عدة دويلات محلية مما جعل من السهل على دولة السلاجقة في آسيا الصغرى وبلاد الشام إحتلال

هذه المناطق بعد أن كانوا قد نجحوا في إحتلال إيران وخوارزم ومعظم أراضي آسيا الوسطى . ولكون السلاجقة مسلمين فقد إنتعش الاسلام مرة أخرى في تلك المناطق .

- ظهور المغول والتتار على مسرح الاحداث العسكرية في العالم العربي والاسلامي وإندفاعهم بجحافلهم الهائلة عبر القوقاز نحو آسيا الصغرى والشرق الاوسط أدى إلى اضعاف الاسلام في تلك المناطق وإرتداد كثير من شعوب تلك المنطقة ومايجاورها من مناطق القوقاز الشمالي إلى الدين المسيحي كما اعتنق بعضهم البوذية بمرور الزمن وقبائل الكالموك والتي تسكن مباشرة على خط التماس مع القوقاز الشمالي إلى الجانب الجنوبي الشرقي لروسيا الاتحادية لا يزالون يدينون بالبوذية باعتبارهم بقايا القبائل التتارية الذين مروا عبر القوقاز باتجاه آسيا الصغرى .

- كما ان إعتناق المغول للدين الاسلامي لاحقاً قد أدى إلى دخول بقايا المغول والتتار في القوقاز الشمالي - بشكل خاص قبائل النوغاي والقحف في جمهورية الداغستان - في الدين الاسلامي في نفس الوقت، فإن سكان مايسمى بجمهورية تترستان في الجزء الجنوبي القريب من روسيا الاتحادية هم أحفاد التتار والمغول الذين غزوا القوقاز قديماً .

- في العصور الحديثة فإن إنتشار الاسلام وإحيائه في منطقة القوقاز وبشكل خاص في بلاد الشيشان والشراكسة جاء على أيدي المبشرين والدعاة من جمهورية الداغستان المجاورة لبلاد الشيشان والتي كانت الاجزاء الشرقية منها والواقعة على ساحل بحر قزوين قد وقعت بأيدي المسلمين وللدقة هنا يجب أن نذكر بأن المقصود

بالشراكسة هنا شراكسة جمهورية القيارطاي وجمهورية الفرشاي والبلقار والاباظة والتي ألغاها الحكم الشيوعي في الثلاثينات في عهد ستالين وقام بضمها إلى جورجيا تحت إسم إقليم أبخازيا كما سيأتي ذكره لاحقاً عن الخلفية التاريخية للكيانات السياسية القائمة حالياً في منطقة شمال القوقاز مع الاخذ علماً هنا بأن «ستالين» هو من أصل جورجي ولهذه الملاحظة أهمية بالغة لفهم التطورات الحالية في منطقة القوقاز الشمالية عندما نبحثها بالتفصيل حين يحين دورها.

- بالنسبة للشراكسة في جمهورية شركيسيا جمهورية «الاديغة» في أقصى غرب القوقاز الشمالي فإن قيام الاتراك العثمانيين بغزو هذه البلاد بدأ عبر شبه جزيرةالقرم، وهي نقطة الاتصال البري بين تركيا ومنطقة القوقاز الشمالي أو بحراً عبر ميناء أنابا وهو المنفذ البحري الوحدي لتركيا إلى منطقة القوقاز الغربي أدى إلى بقاء الاسلام قويًا لدى شعوب وقبائل هذه البلاد والتي هي في الواقع الفرع الام لجميع الشراكسة في منطقة القوقاز وبشكل خاص شراكسة بلاد القيرطاي وقبائل الاباظة والتي كانت تسكن في الجمهورية الام قبل هجرتها للداخل باتجاه الشرق نحو بلاد الشيشان. كما وأن القرشاي والبلقار وهم بقايا أتراك شبه جزيرة القرم والتي كانت تخضع للحكم التركي ورغم كونهم من عرق تركي في الاصل إلا أنهم إندمجوا مع الشراكسة الاصليين لبلاد القوقاز وتعلموا لغتهم وتبنوا عاداتهم بحيث أصبحوا جزءاً لا يتجزأ من الشعب الشركسي الكبير في منطقة القوقاز خصوصاً وأن الاسلام يجمع بينهم جميعاً.

إنتشار الاسلام في بلاد الشيشان

أثبتت أحداث منطقة شمال القوقاز في القرن التاسع عشر وكذلك الاحداث التي تشهدها منطقة القوقاز حالياً وبعد إنهيار الاتحاد السوفياتي بأن انتشار الاسلام في بلاد الشيشان واعتناق القبائل والعشائر الشيشانية العقيدة الاسلامية، كان نقطة تحول تاريخية وحدثاً هاماً في شمال القوقاز فيما يخص بقاء الدين الاسلامي قوياً في منطقة شمال القوقاز وأيضاً في تحديد وتقرير مصير الشعب الشيشاني بشكل خاص وشعوب شمال القوقاز بشكل عام حيث إن المقاومة البطولية التي أبداها الشعب الشيشاني للاحتلال الروسي القيصري لبلادهم والتي استمرت نحو ربع قرن (١٨٣٩- ١٨٦٤م) إنما كانت بفضل العقيدة الاسلامية التي استخدمها الشيشان وبقية شعوب شمال القوقاز كسلاح معنوي ساعد كثيراً في صمود الشيشان لوحدهم في الميدان نحو ربع قرن أمام عدو متفوق من جميع النواحي حيث كانت الامبراطورية الروسية القيصرية أقوى وأكبر قوة عسكرية في أوروبا والعالم في ذلك الوقت أي في الربع الاول من القرن التاسع عشر حيث هزمت «نابليون» ولحقت به داخل باريس عاصمة نابليون واحتلتها كما سيأتي ذكره لاحقاً.

- صمود الشيشان أمام القوات القيصرية لاكثر من ربع قرن رغم الفارق الكبير في العدد والعُدة بين الطرفين أدى إلى تسليط الاضواء من جديد في أوروبا ودول العالم على العقيدة الاسلامية وماتحدثه من تأثير معنوي هائل في نفوس المقاتلين المسلمين بحيث إن أشهر مرجع تاريخي لغزو روسيا القيصرية لشمال القوقاز والذي قامت

بتأليفه الكاتبة والمؤرخة الامريكية «لزلي بلانش» حمل اسم «سيوف الجنة» حيث اختارت الكاتبة والمؤرخة الامريكية هذا العنوان لكتابها لتأكيد الدور الكبير الذي قام به الدين الاسلامي في شحذ همم ومعنويات المقاتلين الشيشان وبقية شعوب شمال القوقاز مثل الداغستان والشراكسة والذين، وكما تقول الكاتبة والمؤرخة الامريكية «تصدوا لبنادق القيصر بسيوفهم والتي كانت بالنسبة لهم مفاتيح الجنة».

وكما ذكرنا، فإن طبيعة بلاد الشيشان الحصينة بجبالها العالية والمغطاة بالغابات الكثيفة جعلت احتلالها صعباً للغاية على أي فاتح مر عبر القوقاز، ولهذا فإن الفتح الاسلامي العسكري لم يصل لبلاد الشيشان.

- انتشار الاسلام في بلاد الشيشان جاء على أيدي الدعاة والمبشرين من جمهورية الداغستان المجاورة والتي كانت الفتوحات الاسلامية قديماً قد وصلت بعض أجزائها كما وصلها الايرانيون الصفويون وتركيا العثمانية وقد قام هؤلاء الدعاة والمبشرين بالاسلام من الداغستان المجاورة لبلاد الشيشان بنشر العقيدة الاسلامية في الاجزاء الجبلية من بلاد الشيشان والمتاخمة للداغستان ومنها انتقل الاسلام إلى بقية بلاد الشيشان والذين ورغم تأخر اعتناقهم للاسلام أثبتوا لاحقاً بأنهم تمسكوا بالعقيدة الاسلامية بقوة ولم يستطيع الحكم القيصري الروسي ولا الحكم الشيوعي من بعده أن يبعدهم عن دينهم وعقيدتهم رغم جميع وسائل الاغراء وحتى الارهاب والتنكيل والنفي خصوصاً على أيدي الشيوعيين، ويمكن القول بأن الطرق الصوفية وأهمها النقشبندية ولاحقاً القادرية هى التي إزدهرت في بلاد الشيشان والداغستان.

الفصل الثاني

شعوب القوقاز

الاصول العرقية واللغوية
والانتماءات الدينية في منطقة القوقاز

- لتسهيل فهم الاصول العرقية واللغوية والدينية لشعوب القوقاز فإن تقسيم القوقاز إلى ثلاث مناطق يكون مناسباً وهذه المناطق هي :

القوقاز الشمالي، الاوسط، والقوقاز الجنوبي، وكما سبق وذكرنا، فإن منطقة القوقاز كانت مسرحاً دائماً للحروب والغزوات عبر عصور التاريخ وهذا الامر أدى إلى وجود شعوب متعدد وأصول عرقية ولغات، وكذلك إنتماء ديني مختلف في منطقة القوقاز.

وهناك عوامل متعددة ساهمت في حدوث التباين الكبير بين شعوب القوقاز في مسائل الاصل العرقي واللغة والانتماء الديني، وهذه العوامل تشمل مايلي :

١ - الموقع الجغرافي للشعوب القاطنة في منطقة القوقاز.

٢- نوع الشعوب التي خضعت للاحتلال الخارجي.

٣- نوع القوى الخارجية المحتلة.

٤- مدة الاحتلال.

- هذه العوامل متفاعلة أدت إلى حدوث فروق واضحة بين شعوب القوقاز والتي تشمل حالياً كلا من الشعوب والقوميات التالية :

١ - الشراكسة في الشمال الغربي والشمال الاوسط للقوقاز الشمالي.

٢- الشيشان في وسط القوقاز الشمالي .

٣- الانجوش في وسط القوقاز الشمالي .

٤- الاستين في وسط القوقاز الشمالي .

٥- الداغستان في الشمال الشرقي للقوقاز الشمالي .

٦- الجورجيين في المنطقة الفاصلة بين القوقاز الشمالي والقوقاز الجنوبي (وسط القوقاز) .

٧- الاذربيجان في الجنوب الشرقي للقوقاز الجنوبي .

٨- الارمن في الجنوب الغربي للقوقاز الجنوبي .

- هذه الشعوب من حيث الاصول العرقية واللغوية والانتماء الديني يمكن تقسيمها كما يلي :

أ / من حيث الاصول العرقية:

تنقسم شعوب منطقة القوقاز عرقياً للاجناس التالية :

ا - العرق أو الجنس القوقازي الاصلى:

الشيشان والشراكسة والانجوش وسكان إقليم أفاريا في الجزء الشمالي الغربي من بلاد الداغستان يمثلون الشعوب الاصلية لمنطقة القوقاز إضافة للشعب الجورجي الاصلي القديم ولهذا السبب فإن هذه الشعوب تُصّنف على أنها من الجنس الابيض وهناك رأي يقول بأن منطقة القوقاز الشمالي هي نقطة إنطلاق الجنس الابيض إلى أوروبا وبقية مناطق العالم ويدعم هذا الرأى الحقائق التالية :

١/ منطقة القوقاز الشمالي وبسبب تضاريسها الجبلية الوعرة والغابات الكثيفة التي تغطيها لم تخضع لاي محتل عبر التاريخ حيث كانت الشعوب القاطنة في هذه المنطقة عندما تتعرض لغازي أقوى من قدرتها تنسحب إلى أعالي الجبال أو الغابات الكثيفة ولهذا فلم تتأثر هذه الشعوب أو تمتزج مع شعوب أخرى حكمت أو مرت عبر منطقة القوقاز الشمالي.

٢/ الموقع الاستراتيجي النادر لمنطقة القوقاز يجعلها نقطة إلتقاء وإنطلاق ملائمة إلى سائر أنحاء العالم وبشكل خاص أوروبا وآسيا الصغرى والشرق الاوسط.

٣/ الجنس الابيض في أوروبا والولايات المتحدة يشار إليه بكلمة قوقازي.

٣- العرق التركي:

ينتشر العرق التركي في كل من أذربيجان وأرمينيا ومعظم أجزاء الداغستان عدا منطقة إقليم أفاريا. كما ينتشر العرق التركي في منطقة شبة جزيرة القرم والتي تعتبر الفاصل البري الوحيد بين القوقاز الشمالي الغربي وتركيا، وفي الواقع، فإن سكان أذربيجان حالياً هم بقايا مسلمي جورجيا ومايعرف الان بأرمينيا واللتان كانتا ضمن المناطق التي إحتلها الاتراك قديما مناصفة مع إيران الصفوية، وقد بقي سكان أذربيجان يتكلمون التركية لغاية عام ١٩٣٥م حيث حلت محلها رسمياً اللغة الاذرية.

- في بلاد الداغستان فإن قبائل القمق ومع أنهم من عرق مغولي في الاصل إلا أنهم يتكلمون اللغة التركية.

٣- العرق الايراني:

ينتشر العرق الايراني واللغة الايرانية في أذربيجان وشمال جورجيا وأجزاء من الداغستان إلى جانب أرمينيا حيث تعرضت هذه المناطق إلى الاحتلال الايراني لفترات طويلة عدا الداغستان والتي إحتلت إيران منها فقط الاجزاء المتاخمة لبحر قزوين أما الاجزاء الجبلية من الداغستان فإنها لم تخضع للايرانيين رغم قيام نادر شاه أحد ملوك إيران الصفوية بحملة عسكرية لاحتلال الداغستان وبقية أقاليم شمال القوقاز المجاورة لها مثل بلاد الشيشان وذلك بعد نجاحه في غزو الهند وإحتلال كثير من مقاطعاتها. وتذكر كتب التاريخ بأن نادر شاه هُزم هزيمة مُنكرة في أول صدام له مع الشعوب الجبلية في الداغستان وبلاد الشيشان، ولهذا فإن لدى الشعب الفارسي مثل يقول: «الشاه يكون غبيا عندما يهاجم سكان الجبال في الداغستان والقوقاز»، ويسمى الايرانيون بلاد القوقاز بأنها البلاد التى دفنت الاسكندر بالنسبة لمنطقة شمال جورجيا فإن قبائل الاوستين وهم سكان جمهورية اوسيتيا الشمالية التابعة لروسيا الاتحادية اضافة الى سكان مقاطعة أوسيتيا الجنوبية التابعة لجورجيا، هم بقايا الغزو الايراني لجورجيا وهناك رأي بأن الاوستين هم في الاصل من العرق الاندوجرماني أي الاري.

٤- العرق التتاري والمغولي:

قبائل النوغاي والقمق في الداغستان هم بقايا الغزوات التتارية والمغولية لمنطقة القوقاز كما وأن بعض سكان أذربيجان هم أيضا

من العرق التتاري والمغولي. سكان تتارستان (مع أنها ليست من أقاليم القوقاز) هم من سلالة التتار والمغول كما وأن قبائل الكالموك التي تسكن بالقرب من تتارستان هم أيضا من العرق التتاري.

٥- العرق الآسيوي الغربي:

سكان شمال أرمينيا وكذلك البشاف والخفسور في شمال جورجيا إضافة لبعض القبائل في الداغستان وبعض قبائل الأنجوش ينحدرون من العرق الآسيوي الغربي.

اللغات السائدة في منطقة القوقاز

- اللغات التالية هي أكثر اللغات السائدة في منطقة القوقاز الشمالي والاوسط والجنوبي وهي منتشرة على النحو التالي :

أ / القوقاز الشمالي:

١ - اللغة الشيشانية:

ويتكلم بها سكان جمهورية الشيشان وإشكيريا والانجوشى إضافة لقبائل التوشين في الجزء الجبلي الشمالي لجورجيا والذين هم في الاصل قبائل شيشانية تسمى قبائل الباتسى رفضت الدخول في الاسلام وانتقلت لجورجيا المسيحية بعد إسلام غالبية الشيشان كما تتكلم الشيشانية قبائل القوزاق في مقاطعة تشير فليونابا على نهر التيرك وهم في الاصل قبائل شيشانية رفضت الدخول في الدين الاسلامي وهاجرت إلى تلك المنطقة.

٢- اللغة الشركسية وتتكلم بها الشركسة الموزعين على الجمهوريات التالية:

أ/ جمهورية القيارطاي.

ب/ جمهورية شركيسيا.

ج/ إقليم أبخازيا.

د/ مقاطعة الاريضة.

٣- لغة الخونزاخ والانتزوخ:

هذه اللغة تسود في إقليم أفاريا من بلاد الداغستان أما بقية بلاد الداغستان فإن اللغات التركية والفارسية هي الاكثر انتشاراً حيث إنها خليط من عدة شعوب ذات عروق مختلفة مثل الايرانيين والمغول والتتار والاتراك.

ب / القوقاز الاوسط والجنوبي:

١ - اللغة الجورجية:

يستخدم هذه اللغة سكان الامارات الستة التي تشكل جمهورية جورجيا اما في إقليم أبخازيا فإن اللغة الشركسية والتركية هي السائدة بين السكان الاصليين للاقليم اضافة للغة الجورجية واللغة الروسية.

٢- اللغة التركية والفارسية:

تستخدم في أذربيجان وأرمينيا رغم وجود لغة خاصة لكل من الاذربيجان والارمن ولكن بسبب الاحتلال الطويل من قبل إيران الصفوية وتركيا العثمانية لاراضي هاتين الدولتين وبسبب كون كثير من الارمن قد هاجروا إلى أرمينيا الحالية من كل من إيران وتركيا فإن هاتين اللغتين شائعتين في هاتين الجمهوريتين ولكن بشكل رئيسي فإن اللغة الارمينية والاذربيجانية هما المستخدمتان في هاتين الجمهوريتين.

- بالنسبة للغة الفارسية فإن شعب الاوستين (سكان جمهورية أوسيتيا الشمالية ومقاطعة أوسيتيا الجنوبية) تتكلم بها لان هذا الشعب هو في الاصل من بقايا الغزو الايراني لجورجيا.

الانتماء الديني لشعوب القوقاز

بشكل رئيسي فإن الاسلام والمسيحية هما الديانتان السائدتان في منطقة القوقاز مع الاخذ بعين الاعتبار أن هناك يهوداً يعيشون في مناطق مختلفة من القوقاز ولكنهم يشكلون إقليات صغيرة ليس لها أي وزن سياسي أو سكاني وفيما يلي الانتماءات الدينية لشعوب القوقاز :

أولا : السنة:

الشيشان والشراكسة والداغستان وقبائل القمق والنوغاي هم مسلمون سنة ، اضافة لسكان جمهورية ناخيتشيفان ذات الحكم الذاتي والتابعة لروسيا الاتحادية ، وتقع الجمهورية في القوقاز الجنوبي بين أذربيجان وأرمينيا .

ثانيا : الشيعة:

جمهورية أذربيجان .

ثالثا : المسيحية:

الجورجيين والارمن وسكان أوسيتيت الشمالية والجنوبية يدينون بالمسيحية ويتبعون الكنيسة الارثوذكسية الشرقية وهي نفس الكنيسة التي كان يتبعها القياصرة الروس قبل سقوطهم على أيدي

الشيوعيين في أكتوبر عام ١٩١٧م.

- بالنسبة لقبائل الاوستين سكان أوسيتيا الشمالية والجنوبية فإنهم ولكونهم من بقايا الغزو الايراني لجورجيا فقد كانوا يدينون بالاسلام ولكنهم تركوا الاسلام واعتنقوا المسيحية بعد إحتلال القياصرة لجورجيا وبقية مناطق القوقاز ويقول غولفين (أنظر المراجع) بأن القياصرة الروس دفعوا روبل واحد وطقم لباس كامل وصليب فضي إلى كل فرد من قبائل الاوستين مقابل إعتناقهم الدين المسيحي والتخلي عن الاسلام.

الوضع السياسي الحالي في منطقة القوقاز

- الكيانات السياسية الحالية القائمة في منطقة القوقاز بشكل عام ومنطقة شمال القوقاز بشكل خاص ، وكذلك المساحة الجغرافية ونوعية السكان في هذه الكيانات السياسية هي نتيجة تفاعل مجموعة من العوامل والتي يمكن تلخيصها بما يلي :

١ - قيام ستالين في الثلاثينات والاربعينات من القرن الحالي بسلسلة من الاجراءات والممارسات ، والتي هدفت الى تعديل الوضع السياسي والجغرافي والسكاني لبعض مناطق القوقاز .

٢- استمرار رؤساء الاتحاد السوفياتي بعد ستالين باتباع سياسة تغيير الوضع العرقي للمناطق التي كانت تحت حكم روسيا السوفياتية .

٣- إنهيار الاتحاد السوفياتي السابق وبزوغ الحركات القومية المطالبة بالاستغلال إنطلاقاً من مبدأ حق الشعوب في تقرير المصير .

الكيانات السياسية في منطقة القوقاز حالياً هي كما يلي:

ا - القوقاز الجنوبي:

أ/ جمهورية الاذربيجان .

ب/ جمهورية أرمينيا.

ج/ جمهورية ناختشيفان (تتبع روسيا الاتحادية مع أنها جزء من أراضي أذربيجان ولكن تنفصل عنها بإقليم ناجورنوقرباغ المتنازع عليه حاليا بين أذربيجان وأرمينيا سكانها مسلمون من العرق التركى).

٢- القوقاز الاوسط:

أ/ جمهورية جورجيا.

ب/ جمهورية أدجاريا.

(جمهورية صغيرة في الجزء الجنوبي الغربي لجورجيا على ساحل البحر الاسود وعاصمتها باطومي وهي تابعة لجورجيا لكن سكانها مسلمون من عرق تركي).

٣- القوقاز الشمالي:

أ/ جمهورية الشيشان.

ب/ جمهورية الانجوش.

ج/ جمهورية أوسيتيا الشمالية.

د/ جمهورية قبارطيا- بلغاريا.

ه/ جمهورية شركيسيا.

و/ جمهورية الاديغة.

ز/ جمهورية الداغستان.

ع/ جمهورية أبخازيا.

- جميع هذه الجمهورات تتبع روسيا الاتحادية عدا جمهورية أبخازيا والتي كانت تتبع جورجيا قبل انفصالها عنها عام ١٩٩٣م بعد انتصارها أي أبخازيا على جورجيا في حرب الاستقلال التي ساندت فيه شعوب شمال القوقاز الاسلامية شعب أبخازيا بإرسال المتطوعين للقتال إلى جانب القوات الابخازية.

- أما جمهورية الشيشان فقد أعلنت في شهر أيلول عام ١٩٩١م استقلالها عن روسيا الاتحادية، وذلك فور إعلان إنهيار الاتحاد السوفياتي. وكما سيأتي ذكره لاحقاً فإن استقلال الشيشان كان هو الحدث الاكبر في القوقاز الشمالي بعد إنهيار الاتحاد السوفياتي حيث إن جمهورية الشيشان تمثل القيادة التاريخية لشعوب شمال القوقاز كما سيأتي ذكره لاحقاً. التعديلات الجغرافية والسياسية والسكانية التي قام بها ستالين كان خطوة مدروسة حيث إنه وقبل استلامه الحكم وشروعه بإحداث التعديلات السياسية والسكانية في بعض مناطق شمال القوقاز. فإن جميع جمهوريات شمال القوقاز كانت متحدة مع بعضها اتحاداً كونفدرالياً تحت إسم «جمهورية شعوب شمال القوقاز».

- جمهورية شعوب جبال القوقاز، والتي كانت تجمع سائر الشعوب الاسلامية في شمال القوقاز ذات التاريخ المشترك في حرب القياصرة الغزاة في القرن التاسع عشر ضمن كتلة سياسية واحدة كانت ستشكل على المدى البعيد خطراً شديداً على الحكم الشيوعي لمنطقة القوقاز حيث إن هذه الشعوب ظلت متمسكة

بالدين الاسلامي ورفضت اعتناق الشيوعية عدا أعداداً بسيطة منها معروفة بكونها شخصيات انتهازية تطمح للزعامة الشخصية والاثراء على حساب المصالح القومية والمعتقدات الدينية. في نفس الوقت. فإن ستالين وهو زعيم الحزب الشيوعي الجورجي كان يعلم بالتفصيل أحداث الصدام الدامي الرهيب بين هذه الشعوب وجيوش القياصرة المتفوقة عدداً وعده والتي إحتاجت لاكثر من نصف قرن لاخضاع هذه الشعوب للحكم القيصري رغم مساندة الجورجيين والاستين والارمن وخيالة الكوزاك (القوزاق) لجيوش القياصرة حيث التحقت هذه الشعوب بالجيوش الروسية وحاربت في صفوفها.

- ومن هذا المنطلق فإنه نظراً لرابطة الدين والتاريخ النضالي المشترك لهذه الشعوب ضد القياصرة فإن اتحادهم ضمن قوة سياسية واحدة كان دائماً مصدر الخطر الذي يهدد احتلال روسيا القيصرية ومن بعدها الشيوعية لمنطقة شمال القوقاز وبالتالي عملت الحكومات القيصرية والشيوعية على تفكيك هذه الشعوب وزرع الخلافات بينها كلما استطاعت.

- وإجراءات ستالين التي سنأتي على ذكرها لاحقاً كانت جزءاً من سياسة الحكم الشيوعي السوفياتي في تفتيت وإضعاف هذه الشعوب ومنع التعاون والتنسيق بينها وذلك على ضوء المقاومة البطولية التي أبدتها شعوب شمال القوقاز ضد الاحتلال القيصري حيث إتحدت جميع شعوب شمال القوقاز الاسلامية للقتال ضد الغزاة القياصرة في القرن الثامن والتاسع عشر، واستطاعت هذه

الشعوب الصمود ضد القياصرة أكثر من نصف قرن قبل أن تنتصر القوات القيصرة وتنجح في احتلال شمال القوقاز ولكن بعد حرب طاحنة سميت بحرب القوقاز الاولى أو «حرب الجبلين» كما تشير إليها كتب التاريخ العسكري لروسيا القيصرية. في نفس الوقت، فإن «حرب المريدين» هي أيضاً مرادفة لحرب القوقاز الاولى وسميت بحرب المريدين لان الحركة المريدية الاسلامية هي التي أوقدت وحملت شعلتها المقاومة ضد الاحتلال القيصري لشمال القوقاز في القرن التاسع عشر مستمدة منهجها من الحركة النقشبندية الاسلامية التي تصدت لقوات كاترينا الثانية أو العظيمة كما تلقبها كتب التاريخ، والتي حكمت روسيا في نهاية القرن السابع عشر وكانت تطمع في احتلال القوقاز لكي تنطلق منها لاستعادة القسطنطينية والقدس من المسلمين وإحياء الكنيسة البيزنطية. وقد استطاعت الحركة النقشبندية بقيادة الامام منصور الشيشاني من منع قوات كاترينا من احتلال شمال القوقاز في القرن السابع عشر رغم نجاح كاترينا في طرد الاتراك والايرانيين من القوقاز الجنوبي. ويمكن القول بأن حرب القوقاز الاولى كانت هي الحرب الوحيدة التي خسرتها شعوب شمال القوقاز، وحتى هذه الخسارة جاءت بعد ملحمة بطولية رائعة وقفت أوروبا بأكملها تراقبها لان أي نجاح سريع للقياصرة في إحتلال شمال القوقاز كان معناه سقوط الهند في أيدي القياصرة لان أحد أهداف إحتلال شمال القوقاز كان إستخدامها كقاعدة إنطلاق لغزو الهند جوهرة المستعمرات البريطانية في ذلك الوقت.

- كما ان نجاح الشعوب الاسلامية وبقيادة الحركة المريدية الاسلامية ضد كاترينا الثانية، في الصمود لمدة تزيد على نصف قرن، أدى إلى إمتناع القياصرة الروس عن غزو الهند خصوصاً وأن خسائرهم خلال حرب القوقاز الاولى وحسب ماجاء في كتاب «سيوف الجنة» (أنظر المراجع) بلغت نصف مليون جندي وضابط وجنرال هلكوا في حرب القوقاز الاولى.

- في نفس الوقت. فإن تعداد الشعب الشيشاني انخفض إلى الربع حسب ماجاء في كتاب قتلة الامم (أنظر المراجع) وذلك بسبب كون الشيشان هم الذين تحملوا القسط الاكبر في الدفاع عن شمال القوقاز في حرب القوقاز الاولى حيث انه وبعد سقوط جميع شعوب شمال القوقاز للحكم القيصري فإن الشيشان استمروا يقاتلون ومعهم بعض القبائل الداغستانية من إقليم أفاريا في الجزء الجنوبي الغربي للداغستان، لمدة ربع قرن. فما هي قصة حرب القوقاز الاولى وماهو تاريخ روسيا العسكري في منطقة القوقاز؟

الفصل الثالث

حرب القوقاز الاولى

حرب القوقاز الاولى

يطلق على الحرب التي جرت في القرن التاسع عشر بين القوات الروسية القيصرية وشعوب شمال القوقاز إبان التوسع الروسي إلى الجنوب باتجاه منطقة القوقاز عدة أسماء منها الاسم الشائع «حرب القوقاز» بينما تسميها مصادر تاريخية أخرى بحرب المريدين. . أو حرب الجبلين على اعتبار أن الحركية المريدية الاسلامية هى التي قادت شعوب شمال القوقاز في هذه الحرب وعلى اعتبار بأن شمال القوقاز هي بلاد جبلية بالدرجة الاولى.

أسباب حرب القوقاز الاولى:

- اهتمام روسيا بمنطقة القوقاز تعود جذوره التاريخية إلى قيام الدولة الروسية حول موسكو والمناطق المحيطة بها بعد انحسار الغزو التتاري والمغولي عن تلك المنطقة. هذا الاهتمام بمنطقة القوقاز تفاوتت أسبابه بين مجرد حماية الدولة الروسية من أي إعتداءات أو غزو من الجنوب إلى اتخاذ القوقاز الشمالى كقاعدة إنطلاق لغزو الهند أو إعادة إسترجاع القسطنطينية (إسطنبول حالياً) من الاتراك العثمانيين وإعادة إحياء الكنيسة الارثوذكسية الشرقية، والتي كانت ترعاها الدولة البيزنطية قبل سقوطها على يد الاتراك. في نفس الوقت، فإن «إسترجاع القدس» من المسلمين كان أيضاً من ضمن أحلام بعض قياصرة روسيا وبالتالي فإن إحتلال القوقاز كان خطوة بهذا الاتجاه.

وعلى ضوء الاسباب المتعددة والتي من أجلها اهتمت روسيا القيصرية بمنطقة القوقاز عبر التاريخ، فإن العلاقات التاريخية لروسيا في منطقة القوقاز تعود إلى أيام بطرس الاكبر والذي اهتم بالقوقاز لتأمين حدوده الجنوبية ضد أكبر قوتين اسلاميتين في العالم في ذلك الوقت، فإن فتح طريق تجاري إلى الهند عبر بحر قزوين (بحر الخزر) كان أيضاً من ضمن أسباب اهتمام بطرس الاكبر بمنطقة القوقاز. أما بالنسبة للامبراطورية كاترينا الثانية فإن اهتمامها بالقوقاز كان سبب «حملها بإعادة إحياء الكنيسة الارثوذكسية الشرقية باعتبارها الكنيسة الام للشعب السلافي الروسي، وربما استرجاع القدس من المسلمين. أما القيصر بول إبن كاترينا، فإن حماية الشعوب المسيحية في القوقاز الجنوبي وآسيا الوسطى من «وحشية وهمجية الايرانيين والاتراك»، وكذلك غزو الهند كانا سبب اهتمامه بمنطقة القوقاز. أما إبنه الكسندر الاول فإن حلمه «أن يرى الصليب قد تفوق على الهلال» «واستعادة القسطنطينية والقدس من المسلمين» كان أهم أسباب اهتمامه بمنطقة القوقاز إضافة إلى غزو الهند مع أنه أنكر عند زيارته لبريطانيا عند توليه الحكم أنه يحمل أي «نوايا سيئة ضد الهند». (كتاب سيوف الجنة).

الظروف السائدة في القوقاز
قبل إندلاع حرب القوقاز الاولى

من ناحية جغرافية، تم تقسيم القوقاز إلى ثلاثة أقسام:

القوقاز الجنوبي (أراضي مايعرف الآن بجمهوريات أذربيجان وأرمينيا وناختشيفان).

القوقاز الاوسط- جورجيا.

القوقاز الشمالي: الاراضي الواقعة بين بحر قزوين والبحر الاسود وموطن شعوب الداغستان- الشيشان- القبارطاي- الانجوش- الشراكسة، وبالنسبة لهذه المناطق الثلاث، فإن الاحوال السائدة فيها كانت كما يلي:

أولا: القوقاز الجنوبي:

إيران وتركيا كانتا تتقاسمان مايسمى الآن بإذربيجان وأرمينيا، وذلك على شكل باشويات أو خانيات تابعة لهما. في نفس الوقت فإن شبه جزيرة القرم كانت تحت سيطرة الاتراك من خلال باشوية أخالتسخ، حيث كان سكانها أحفاد التتار والمغول يدينون بالسيادة لتركيا.

ثانيا: القوقاز الاوسط:

تفليس عاصمة جورجيا وماحولها إضافة إلى ولايات كارتلينا

وكاخيتيا ومنجريليا وإيمريتا كانت من ضمن أملاك روسيا وتحت وصايتها بينما ولاية جوريا (غوريا)، وكذلك مايسمى الآن بأبخازيا كانت ضمن السيادة التركية.

ثالثا:

باستثناء الاجزاء الشرقية من الداغستان والتي كانت إيران وتركيا تملكان بعض النفوذ فيها حيث تعيش مجموعات عرقية إيرانية وتركية الاصل، إلا أن بقية شعوب شمال القوقاز لم تكن مُحتلة وتابعة بل كانت شعوب حرة لا تخضع لاحد. صحيح أن الاتراك كان لهم بعض النفوذ بين شراكسة الاديغة القاطنين على طول نهر كوبان قرب شبه جزيرة القرم، وسواحل البحر الاسود إلا أن هذا النفوذ لم يتعدى الناحية الدينية من حيث كون تركيا مركز الخلافة الاسلامية في ذلك الوقت، وهذا التأثير الديني إمتد أيضاً إلى معظم شعوب شمال القوقاز، ولكن لم يتعد «المشاعر» الفردية.

– في نفس الوقت كان هناك تقارب بين شعوب شمال القوقاز من حيث التكوين الاجتماعي. فشعوب الداغستان والقبارطاي والشراكسة والاستين سادت بينهم الطبقية بحيث كان «النبلاء» يحكمون والبقية تابعون وينفذون مايقرره «النبلاء» أو الصفوة الحاكمة. أما الشيشان وأبناء عمومتهم الانجوش فإنهم لم يعرفوا الطبقية بل كانوا مجموعات من القبائل، لكل قبيلة زعيم غالباً أكبرهم سناً، وكان هناك مجلس للقبيلة من كبار القوم يقوم بحل النزاعات وإصدار القرارات المطلوبة في الحالات والظروف

الطارئة. كما كان هناك «مجلس عام» لجميع القبائل يتمثل بزعماء القبائل وكبارهم وكان هذا المجلس العام هو الذي يقرر نوعية التصرف المطلوب حيال الامور الهامة التي تخص الشعب بأكمله. وفي هذه الحالة كان المجلس العام يختار زعيما لقيادة الشعب يقوم بقيادة القبائل إلى حين إنتهاء الظرف الطارىء الذي استدعى اختياره زعيماً حيث تزول عنه «صفة الزعامة» بعد إنتهاء الظرف المستوجب لزعامته. وبمعنى آخر. كانت الزعامة المطلقة مؤقتة.

كيف بدأت حرب القوقاز الاولى

رغم أن بطرس الاكبر ومن بعده كاترينا أرسلوا حملات عسكرية إلى القوقاز الجنوبي وشبه جزيرة القرم إلا أن هذه الحملات كانت تنتهي بانسحاب القوات الروسية إلى ماوراء نهر التيرك الفاصل بين روسيا ومنطقة القوقاز.

- كما ان هذه الحملات أدت إلى تأسيس قاعدة إنطلاق أساسية للقوات الروسية نحو منطقة القوقاز وهذه القاعدة كانت على شكل مجموعة من الحصون والقلاع التي تم بناؤها على طول امتداد نهر التيرك من بحر قزوين شرقاً إلى البحر الاسود وبحر آزوف غرباً، ومن هذه القلاع «مزدوك» (الغابة الكثيفة) والتي أقيمت في بلاد القبارطاي وفلادي كافكاز (في بلاد الاستين) وهذه القلاع والحصون أطلق عليها اسم خط الكوزاك العظيم وهذا الخط كانت تحرسها شعوب الكوزاك (أو القوزاق) المسيحية والتي استطاع الروس بمرور السنين إخضاعها وإدخالها ضمن السيادة الروسية. وهذه الشعوب كانت مشهورة بشدة بأسها ومهارتها في ركوب الخيل واستخدام السيف إضافة إلى كونهم «خبراء» في شؤون التجسس وجمع الاخبار.

- انسحاب القوات الروسية من القوقاز (في عهد بطرس وكاترينا الثانية) رغم نجاحها في إحتلال معظم الولايات الايرانية والتركية في أذربيجان وأرمينيا وشرق الداغستان كان يتم لان قوة روسيا العسكرية لم تكن كافية لدخول حرب ضد الدولتين الإسلاميتين الكبيرتين في ذلك الوقت لمدة طويلة.

- على أي حال. في العقد الثاني من القرن التاسع عشر كانت روسيا القيصرية قد بلغت ذروة مجدها العسكري بعد نجاحها في هزمية نابليون واللحاق به إلى باريس، وكانت روسيا في ذلك الوقت أقوى وأكبر قوة عسكرية في أوروبا. حيث كانت بروسيا (الاسم القديم لالمانيا) وكذلك بولندا من ضمن الدول التي تحكمها روسيا من خلال عائلات حاكمة لها صلة قرابة مع دم أسرة رومانوف الحاكمة في روسيا القيصرية، وبالتالي فإن قائد الحرس القيصري-البروسي يرملوف كان على رأس «قوات الحلفاء» التي دخلت باريس عاصمة نابليون عام ١٨١٤م حيث أصبح يرملوف الحاكم العسكري لباريس.

كما أصبح الوضع جاهزاً لاحتلال القوقاز وكانت خطة روسيا العسكرية تتلخص بما يلي:

١ - اخضاع شعوب شمال القوقاز أو على الاقل دفعها بعيداً عن نهر التيرك بإتجاه الجبال مع بناء قلاع وحصون داخل القوقاز الشمالي تكون بمثابة نقاط إنطلاق إلى جورجيا أو أي بقعة في شمال القوقاز تحدث فيها ثورات ضد الجيوش القيصرية علماً بأن جورجيا ضمن لروسيا القيصرية عام ١٨٠٠م.

٢ - احتلال جنوب القوقاز (أذربيجان وأرمينيا) وكذلك شبه جزيرة القرم.

- الخطة بعد أن جهزت فإن التنفيذ إستدعى إختيار القائد العام لجيوش القيصر في منطقة القوقاز، وطبعاً وقع الاختيار على «يرملوف» أشهر جنرال يعمل في خدمة القيصر، وهكذا كانت بداية حرب القوقاز الاولى.

أحداث حرب القوقاز الاولى

المرحلة الاولى:

أيها القوقاز طأطىء

رأسك الثلجي وأخضع

إن يرملوف قادم

- هذا ماكتبه بوشكين شاعر روسيا الشهير عندما علم بأن مهمة احتلال القوقاز أوكلت إلى يرملوف والذي في نهاية ١٨١٦م تم تعيينه رسمياً بأمر من القيصر الكسندر الاول نائباً للقيصر في جورجيا والقوقاز حيث وصل تفليس وباشر مهام عمله هناك.

- كما أن القيصر أرسله في مهمة عاجلة إلى إيران للتباحث مع «فتح علي» شاه إيران، والذي كان يفكر وبتحريض من الانجليز على إعلان الحرب على روسيا لاستعادة دربند على بحر قزوين وباكو عاصمة أذربيجان واللتان كان الروس قد احتفظوا بهما منذ أيام فتوحات بطرس وكاترينا وقد تكللت مهمة يرملوف بالنجاح وتراجع «فتح علي» عن نواياه.

- فور عودة يرملوف بدأ في إخضاع الشعوب القاطنة حول نهر التيرك وكانت المهمة تتطلب تأمين طريق يصل بين قيادة القوات الروسية في فلادي كاكفكاز وتفليس عاصمة جورجيا التابعة لروسيا الاتحادية منذ أيام القيصر بول والد القيصر الكسندر الاول والذي

أوكل إلى يرملوف مهمة إخضاع القوقاز. وللعلم هنا، فإن المسافة بين فيلادي كافكاز وعاصمة جورجيا تفليس هي نحو ١٤٥ ميل (٢٣٢ كم).

- هذا الطريق بين تفليس ومقر القوات الروسية القيصرية التي أوكل إليها مهمة احتلال القوقاز سميت في كتب التاريخ العسكري الروسي باسم «طريق جورجيا» وكانت تعيش إلى جانبي هذا الطريق مجموعة من الشعوب مثل الاستين والقبرطاي وقبائل التتار المعروفة باسم المكالموك إلى الغرب من طريق جورجيا وقبائل الانجوش (الفلفاي) والخفسوريون والبشاف إلى الشرق، وكانت هذه القبائل تقوم بعمليات السلب والغارات إما على القلاع والحصون الروسية المقامة على خط الكوزاك أو ضد بعضها البعض. وفي نفس الوقت فإن بعض هذه الشعوب تعاونت مع الروس في فترات سابقة أثناء حملات بطرس وكاترينا. فعلى سبيل المثال قدمت كاترينا إلى امراء القبارطاي عام ١٧٦٤م هدية مقدارها ثلاثة آلاف روبل، وذلك تقديراً لمساعدة عسكرية كان أمراء القبارطاي قد قدموها للروس ضد الشيشان، والذين قاوموا جيوش كاترينا في إحدى الحملات التي أرسلتها ضد القوقاز.

- تأمين طريق جورجيا لم يأخذ من يرملوف وقتاً طويلاً حيث إن هذه الشعوب ومع أنها قاومت التوسع الروسي في بلادهم باتجاه الجنوب في بادىء الامر إلا أنهم بشكل عام تقبلوا الحكم الروسي والسيادة الروسية والتي كانت في الغالب إسميه بكثير من الرضا بل واستطاع الروس تحويل شعب الاوستين (سكان أوسيتيا الشمالية

والجنوبية حالياً) إلى المسيحية الارثوذكسية وانضموا للقوات الروسية ضد القبائل الاسلامية في القوقاز الشمالي .

- بعد أن نجح يرملوف في فتح وتأمين طريق جورجيا شرع في بناء قلاع وحصون داخل القوقاز الشمالي على شكل خط موازي لخط الكوزاك العظيم وكانت أولى هذه القلاع هي غروزني وتعني بالروسية (المهدد أو الرهيب) وهما لقب قيصر روسيا المعروف باسم إيفان الرهيب .

- بناء غروزني تم في بلاد الشيشان وجرت مراسيم عسكرية كبيرة عند وضع حجر الاساس للقلعة حيث دوت المدافع ابتهاجاً بالحدث وطبعاً المظاهر الاستفزازية هذه أثارت السكان الشيشان والذين فطنوا إلى مغزى بناء القلعة واستخدامها كقاعدة إنطلاق للداخل نحو بلادهم ولهذا فقد قاموا بمهاجمة القوات الروسية ، ولكنهم منيوا بهزيمة كبيرة بسبب المدافع الروسية والتي لم يكن الشيشان قد أستوعبوا مدى قدرتها التدميرية في الارواح والممتلكات . وكما يقول الكاتب والمؤرخ جون بادلي في كتابه «الاحتلال الروسي للقوقاز» ص ١٤٢ - ١٤٣ .

- إنطلق السكان الوطنيون في ثورة مكشوفة سريعة وإن كانت غير منظمة وكانت نيران القنص كل ليلة تنهال على معسكر الروس ، وعزم يرملوف على تلقين الشيشان درساً ، ولذلك جرى الترتيب التالي بأن تتظاهر مجموعة حراسة مؤلفة من خمسين رجلاً مختارين ، بترك مدفع في نقطة معينة عند حلول الليل ، وقيست المسافة بدقة وصوبت إليها بقية المدافع ، ونجحت الحيلة فقد إنطلق

الشيشان من مخابئهم في جماعات كبيرة واستولوا على المدفع منتصرين، وبعد لحظات حصدتهم نيران القنابل. أما الذين نجوا من الاصابة فقد وقفوا دقيقة أو إثنتين، وقد استولى عليهم الذهول، ثم بعد أن استردوا وعيهم أخذوا قتلاهم وجرحاهم وحاولوا نقلهم معهم. غير أن هذا التأخير كان قاتلاً. إذ صبت البنادق الروسية عليهم وابلاً من الرصاص، محدثةً نفس الآثار الفتاكة السابقة، وكان المائتا قتيل، ومثلهم من الجرحى، الذين تُركوا في ساحة الكارثة، درساً قاسياً منع الشيشان من الهجمات الليلية لوقت طويل. لقد كان الروس جيدين، ولكن الذي تعلمه الشيشان كان الكره الشديد الذي لا يتزعزع للغزاة الكفرة. لان الشيشان ظلوا لمدة أربعين سنة بعد هذه الحادثة وهم يحملون لروسيا العداء المتواصل.

- بعد أن تم بناء غروزني تم بناء قلعة ثانية سميت القلعة باسم قلعة فنيزابنايا وتعني بالروسية «قلعة المفاجأة» وكان الهدف منها منع أي اتصال بين الشيشان والداغستان من جهة الشرق إضافة إلى حماية سهول قبائل الكموك (القمق) وهم قبائل تركية الاصل في الداغستان، كانت متعاونة مع روسيا وتقبلوا حكمها وسيادتها عن طيب خاطر. وبعد بناء فينزابنايا قام يرملوف ببناء قلعة بورنايا وذلك قرب خانية تاركو، والتي خضع حاكمها أيضاً للروس، ودخل في خدمتهم وببناء يورنايا فإنه تم استكمال خط من القلاع الحصينة من فلادي كافكاز إلى بحر قزوين.

- بناء هذه القلاع سواء داخل بلاد الشيشان أو باتجاه الشرق نحو الداغستان وبحر قزوين أثار شكوك رجال القبائل في الداغستان

فاجتمعوا للتشاور وقرروا مقاومة الروس وعندما علم يرملوف بهذا الاجتماع أرسل على عجل حملة عسكرية بقيادة الكولونيل بستيل لاحتلال خانية كراكايتاغ، كما قاد بنفسه حملة ضد خانية مختولي واحتلها، وكان للمدفعية الروسية أثر كبير في الانتصار لان سكان الداغستان مثلهم مثل الشيشان لم يكونوا قد حاربوا من قبل عدواً يمتلك مجموعة من المدافع القوية الفتاكة.

انتصارات يرملوف هذه أدت إلى سرور القيصر والذي أرسل تعزيزات عسكرية جديدة إلى يرملوف تحت اسم «فيلق جورجيا» أي الفيلق المؤلف فقط من الجنود النظاميين دون أن يدخل ضمنهم الكوزاك وبقية الشعوب التي دخلت في خدمة القيصر. وبلغ عدد القوات النظامية لدي يرملوف خمسين ألف جندي مزودين ببنادق أوتوماتيكية ومدفعية ثقيلة. وبهذه القوات تمكن يرملوف من احتلال معظم خانيات الداغستان، وبالتالي أحكم الطوق في الشرق على الشيشان، والذين إنتهزوا فرصة انشغال الروس ببناء فنيزابنايا وقاموا بهجوم مباغت على إحدى القطاعات الروسية، ولما علم يرملوف بهذا الهجوم صمم على تلقين الشيشان درساً قاسياً آخر واختار مكاناً لهذا الدرس قرية دادي يورث وتعني بالشيشانية (مدينة الآباء) وكانت قرية غنية آهلة بالسكان والذين يتقن سكانها السلب والسرقة (على رأي الروس). وقد أوكل يرملوف إلى الجنرال سيسوييف مهمة تدمير القرية تدميراً تاماً. الوصف التالي لتنفيذ المهمة جاء في كتاب المؤرخ جون بادلي «الاحتلال الروسي للقوقاز» ص ١٦١ - ١٦٢.

- في الخامس عشر من أيلول ١٨١٩م اقترب سيسوييف مسافة

أكثر عند الفجر وانفتحت للقتال ستة سرايا من فوج القبرطاي (أحد الافواج المكونة لفيلق جورجيا الكبير) ومعهم سبعمائة قوزاقي مع ستة مدافع وصدر الامر للخيالة بالهجوم واستعد الشيشان من جانبهم للدفاع عن أنفسهم، وبدأ قتال يائس دموي لم يمر على القوات الروسية مثيل له في القوقاز حتى ذلك الوقت. وكان كل بيت محاط بسور عال من الحجر وأشبه مايكون بالقلعة وكان لابد من دكه بالمدفعية. ثم الاستيلاء عليه بالاقتحام. وكان الجنود يجرون المدافع بأيديهم من بيت إلى بيت، ويضعون المدافع موقع الرمي تحت وابل من نيران البنادق التي انصبت عليهم من مسافات قريبة مما أدى إلى قتل وجرح عدد كبير من أطقم المدافع، ولكن كان يحل محلهم مساعدوهم، وكذلك القوزاق، واستمرت الرماية، وعندما كانت تفتح أقل ثغرة كان الجنود يسارعون في الاندفاع منها ويحدث قتال لا مثيل له بين الحراب الروسية والخناجر القفقاسية، ولم يكن هناك أمل في العودة لأي جندي يتورط في الازقة المتعرجة بين البيوت كما لم يكن هناك أمل للشيشان الذين هوجموا لاول مرة في قرية، ولم يكن لديهم وقت لاخراج عائلاتهم منها، وكان سخط الطرفين يتزايد كلما قُتل شخص جديد، وبعض الشيشان قاموا بذبح نسائهم وأطفالهم بعد أن يئسوا من النصر وتحت سمع الجنود الروس وبصرهم، وكثير من النساء كن يلقين بأنفسهم على الجنود والسكاكين بأيديهن، وكن يقفزن يائسات في داخل البيوت المحترقة ويمتن وسط اللهيب، وتزايدت الخسائر بسرعة بين الطرفين، وأخيراً أصبح من الضروري إنزال عدد أكبر من القوزاق عن خيولهم وإرسالهم لمساعدة جنود فوج القبارطاي، وحتى في هذه الحالة،

فقد إمتدت المجزرة الرهيبة عدة ساعات أخرى وتم في النهاية الاستيلاء على القرية والتي لم يبق من رجالها على قيد الحياة سوى أربعة عشر رجلاً مصابين بجراح بالغة وأُسر مائة وأربعون من النساء والاطفال، والذين كان كثير منهم يعانون من الجراح.

- بعد هذه الحملة قام يرملوف بحملة أخرى على غازي قمق في الجنوب من داغستان بعد أن سبق وتمكن من احتلال مختولي وتبارسان وكاتياغ وأكوش وأفاريا، وتمكن من هزيمة سورفاي خان زعيم غازي قمق وقام بتنصيب أصلان خان (حاكم كيورين والذي كان قد أنضم للروس وزودهم بثمانمائة مقاتل) زعيماً لخانية غازي قمق، وبهذا الاحتلال فإن معظم الداغستان باستثناء الاجزاء الداخلية الغربية من إقليم أفاريا، وكذلك المناطق الجبلية من بلاد الشيشان بقيت خارج سيطرة الروس إلا أن الروس لم يهتموا بها وقام يرملوف بإرسال تقرير للقيصر الكسندر في حزيران عام ١٨٢٠م يقول فيه:

- «بدأ اخضاع داغستان في العام الماضي وهو الآن مكتمل وهذه البلاد المتكبرة الميالة للحرب، والتي بقيت لحد الآن دون إحتلال، قد وقعت الآن تحت أقدامكم المقدسة ياصاحب الجلالة الامبراطور».

- لم يلاحظ يرملوف انه كان مخطئاً في تقريره هذا. حيث إن الجزء الداخلي من القسم الغربي من إقليم أفاريا، وكذلك بلاد الشيشان الجبلية لم تكن بعد قد ظهرت فيها الحركة المريدية الاسلامية والتي ستقلب الموازين رأساً على عقب كما سيرد ذكره لاحقاً.

- ملاحظة بسيطة على نجاح الروس في الاجزاء السهلية من بلاد الشيشان، ومعظم أنحاء الداغستان هو أن القبارطاي المجاورين للشيشان، وكذلك الاتراك والايرانيين المجاورين لداغستان من خلال أذربيجان لم يقدموا أي معونة لاخوانهم في الدين من الشيشان والداغستان، وكان هذا التقاعس عن مد يد العون سبباً رئيسياً في النجاح السريع الذي حققه الروس في الداغستان والاجزاء السهلية من بلاد الشيشان، ودفع هؤلاء الثمن غالياً. حيث إنه وفور نجاح يرملوف في تثبيت نفسه في بلاد الداغستان والشيشان قام بحملة سريعة ضد القبارطاي (رغم أنهم ساعدوا الروس أحياناً) على الضفة اليسرى لنهر التيرك واحتل بلادهم في عام ١٨٢٢م كما أرسل يرملوف حملات إلى مقاطعات قراباغ وشوشا في أذربيجان وتم ضمها إلى أملاك القيصر.

- ومن عام ١٨٢٢م ولغاية عام ١٨٢٨م عم الهدوء منطقة القوقاز باستثناء ثورة مكشوفة عام ١٨٢٤م قام بها الشيشان فقام الجنرال جريكوف بقمع الثورة بقسوة بالغة إذ قام بتدمير القرى الثائرة وحرقها بالمدفعية وشنق الرهائن والنساء والاطفال علناً، ولكن هذا لم يزد الشيشان إلا عناداً وسخطاً واستمرت الثورة حتى عام ١٨٢٥م حيث تم قمعها نهائياً.

- كما أن الجنرال جريكوف ومساعده ليسانيفتش قتلا حيث قام أحد الشيشان وإسمه تشار حاجي بقتلهم بخنجره حين تظاهر بالاستسلام وإستل خنجره وقام بتمزيق الاثنين قبل أن يقتله الجنود الروس.

- اغتيال الجنرال جريكوف ومساعده أثار غضب يرملوف الموجود في تفليس والذي غادر إلى فلادي كاكفكاز لاعادة الامن والهدوء إلى بلاد الشيشان خصوصاً بعد أن تسلم رسالة من القيصر في ١٨ آب يقول له فيها بأن هناك (٦٠) ألف جندي روسي في القفقاس (القوقاز) وهو عدد لم يتوفر من قبل لاي قائد، وبالتالي يجب أن يكون هذا العدد كافياً لاعادة الهدوء والنظام. كما قام القيصر بإرسال سبعة آلاف جندي كتعزيزات ليرملوف والذي قام عام ١٨٢٦م بشن حملة عسكرية ضد الشيشان أحرق فيها عشرات القرى الشيشانية بالمدفعية، وقام بتدمير الغابات التي كان الشيشان يلتجأون لها هرباً من المدفعية الروسية إلا أن الشيشان رفضوا الخضوع النهائي وهرب معظمهم إلى الجبال.

بعد نجاح يرملوف في القضاء على ثورة ١٨٢٤م في بلاد الشيشان فإنه تم عزله عن قيادة جيوش القوقاز، وذلك عند تسلم القيصر نيقولا الاول (نيكولاس) الحكم خلفاً للقيصر الكسندر، وكان سبب العزل هو إعلان يرملوف بعد سماعه خبر وفاة القيصر الكسندر ولائه لاخيه الاكبر قسطنطين، والذي تنازل عن الحكم لنيقولا، والذي غضب من موقف يرملوف هذا إضافة إلى عدم رضائه عن فشل يرملوف في إخضاع الشيشان والداغستان إخضاعاً كاملاً، وهكذا غادر يرملوف القوقاز نهائياً ولكن إسمه ترك كثيراً من الذكريات المؤلمة عن وحشيته وقسوته ضد الشيشان والداغستان.

الحرب في القوقاز الجنوبية وشبه جزيرة القرم

كما سبق وأن ذكرنا فإن النزاعات العسكرية بين روسيا وكل من إيران وتركيا في القوقاز الجنوبية (أذربيجان وأرمينيا وداغستان الشرقية وأجزاء من جورجيا) تعود إلى أيام بطرس الاكبر وكاترينا الثانية، وكذلك القيصر بول، والذي أجبر الايرانيين عام ١٨١٣م على توقيع معاهدة جولستان، تنازلت إيران بموجبه لروسيا القيصرية عن جميع خانياتها في القوقاز الجنوبي مثل خانيات كراباغ وغاندجا وشيكين وشيرفان ودربند وكوبا وباكو مع جزء من خانية طاليش وقلعة لينكوران، وفي نفس المعاهدة، تخلت إيران عن أي مطالبة في المستقبل بداغستان وجورجيا ومنجريليا وإمريتا وأبخازيا. ومن الغريب أن روسيا القيصرية هزمت إيران الصفوية في القوقاز الجنوبي رغم أنها كانت مشغولة بحرب نابليون والذي قام بغزو روسيا عام ١٨١٢م. وفي نفس الوقت كانت روسيا القيصرية قد انتصرت على الاتراك في الحرب التي جرت بينهما عام ١٨٠٧م واستولت على معظم الولايات التركية في شبه جزيرة القرم وسواحل البحر الاسود وغرب جورجيا إلا أن تركيا والتي هددت عام ١٨١٢م أثناء انشغال روسيا بحرب نابليون وإيران في آن واحد، بإعلان الحرب على روسيا، نجحت في إجبار الروس على توقيع معاهدة بخارست في ١٦ أيار ١٨١٢م واستردت تركيا بموجبها جميع ولاياتها ومقاطعاتها في شبه جزيرة القرم وغرب جورجيا، وعادت جيوشها إلى هذه المناطق بما فيها ميناء أنابا وميناء بوتي على ساحل البحر الاسود.

- هذا الوضع تغير عام ١٨٢٦م وعام ١٨٢٨م حيث تجددت الحرب مرة ثانية بين روسيا وإيران عام ١٨٢٦م حيث انتهزت إيران فرصة وفاة القيصر الكسندر الاول لاسترجاع مافقدته بموجب معاهدة جولستان رغم أن الروس قاموا بإرسال الكونت منشيكوف حاملاً هدايا ثمينة إلى الشاه فتح علي بمناسبة تولي القيصر نيكولا (نقولا) عرش روسيا ولتقوية الروابط بين البلدين. وقد بدأت الحرب والمبعوث الروسي لا يزال في بلاط الشاه حيث قام ولي العهد عباس مرزا على رأس جيش ضخم بإكتساح خانية قراباغ كما قام والي يرفان (عاصمة أرمينيا) والذي كان لا يزال من أتباع الشاه بمهاجمة مقاطعتي بومباك وشوراغيل وتمت إبادة الحاميات الروسية في هذه المناطق كما تم حصار شوشا وباكو من قبل القوات الايرانية. كما قام الاكراد ربما بإيعاز أو تواطىء من تركيا، والتي كانت لا تزال في حالة سلم مع روسيا، بمهاجمة مستوطنة إيكاترينفلد ودمروها تدميراً تاماً وساقوا سكانها الذين نجوا من الذبح (ومعظمهم من المهاجرين الالمان والذين كان الكونت بوتمكين قد أحضرهم من ألمانيا في عهد كاترينا الثانية) إلى القسطنطينية (إستانبول) حيث تم بيعهم كرقيق.

- الهجوم الايراني المباغت فاجأ القيصر نيقولا والذي لم يكن قد مضت أسابيع قليلة على تولية الحكم وامتلكه الغضب لهذا «السلوك العدواني» من الشاه فتح علي وأرسل على عجل إلى يرملوف بتفليس بنجدة قوامها الفرقة ٢٠ من جبهة القرم إضافة إلى ستة أفواج من كوزاك نهر الدون وطلب منه مهاجمة يرفان إلا أن يرملوف رفض الامر حيث إن مهاجمة يرفان قبل إعادة احتلال خانية

قراباغ كان في نظره ينتطوي على مخاطرة عسكرية كبيرة أهمها تعرض تفليس نفسها لهجوم عباس مرزا فيما إذا تحرك يرملوف بجيشه إلى يرفان. وهذا الرفض وعلى ضوء عدم الرضا الذي كان القيصر يكنه ليرملوف بسبب موقفه من تأييد شقيقه قسطنطين وفشله في الاخضاع الكامل لبلاد الشيشان والداغستان، أدى إلى قيام القيصر بعزل يرملوف من منصبه وتعيين أمير وارسو الفيلد مارشال باسكيفتش قائداً لجيوش القيصر في منطقة القوقاز، وأرسل له تعزيزات إضافية وتمكن باسكيفتش وبعد أسبوعين من وصوله إلى تفليس وبجيش يبلغ عدده عشرة آلاف فقط من هزيمة الايرانيين هزيمة نكراء في معركة على ضفاف نهر أكستافا رغم أن جيش الشاه كان نحو ستين ألفاً ومعهم ٢٦ مدفعاً مقابل ٢٤ لدى الروس، وبعد هذه المعركة تقدم الروس واحتلوا قلعة عباس أباد والتي كانت تحمي خانية ناختشيفان من الجنوب وبعدها سقطت ناختشيفان بيد الروس وبقيت بأيديهم إلى حد الآن حيث تعتبر جمهورية ناختشيفان ذات الحكم الذاتي إحدى الجمهوريات التابعة لروسيا الاتحادية وبدون الخوض في بقية تفاصيل الحرب بين الروس وإيران الصفوية فإن هذه الحرب انتهت باحتلال الروس ليس فقط ليرفان عاصمة أرمينيا حالياً بل أيضاً تبريز نفسها وهي مدينة عريقة ومسقط رأس زورو أستر (زرداشت) تبعتها مدينة أردبيل وقام الروس بنقل محتويات مسجد الشيخ صفي الدين من المخطوطات الاسلامية الثمينة إلى سان بطرسبرج عاصمة القيصر حيث لا تزال لحد الآن.
كما غنم الروس في إحتلالهم ليرفان «سيف تيمورلنك» والذي كان بحوزة خان يرفان وكان إسمه حسن.

- الهزائم المتتالية التي أصابت جيوش الشاه فتح علي وولي عهده عباس مرزا أدت إلى قبول إيران التوقيع على معاهدة تركمنتشاي بتاريخ ١٠ شباط ١٨٢٨م أي بعد سنتين من بدء الحرب في القوقاز الجنوبي بين الروس والايرانيين وقد نصت بنود المعاهدة على مايلي :

١- إعتراف إيران بملكية روسيا لخانية يرفان وناختشيفان .

٢- تحصل روسيا على حق الملاحة في بحر قزوين .

٣- تعهد إيران بالسماح لارمن إيران بالهجرة إلى يرفان .

٤- دفع غرامة مقدارها عشرون مليون روبل .

٥- تنسحب قوات القيصر من تبريز وأردبيل وبقية المناطق الداخلة في حدود إيران .

- وفي نفس العام الذي انتهت فيه حرب روسيا مع إيران أي عام ١٨٢٨م أعلنت تركيا الحرب على روسيا لاسترداد نفوذها في جورجيا وبالتحديد في منجريليا وإيمريتا وحتى تفليس نفسها ، وبدون الخوض في تفاصيل هذه الحرب والتي دارت سنة واحدة فيمكنني القول بأن نتيجة هذه الحرب انتهت بانتصار الروس نصراً لا يقل عن نصرهم ضد إيران الصفوية حيث إحتلت روسيا من الاتراك باشويات قرص وبايزيد وخانية أخالتسخ في شبه جزيرة القرم إضافة إلى استعادة غوريا وميناء بوتي ، وكذلك ميناء أنابا على ساحل البحر الاسود . ليس هذا فحسب بل وتوغلت الجيوش الروسية داخل حدود تركيا نفسها حيث دخلت أرضروم عاصمة الاناضول ، والتي

لم تكن قد شهدت جنوداً من النصارى طيلة خمسة قرون سابقة وكان من الذين دخلوا أرضروم مع الجنرال باسكيفتش شاعر روسيا الشهير بوشكين والذي كان وقتها مجنداً في الجيش الروسي العامل في القوقاز.

- سقوط أرض روم أرغم الاتراك على توقيع معاهدة بتاريخ ٢ أيلول ١٨٢٩م هي معاهدة أدرنة كان من بنودها مايلي:

١- انسحاب القوات الروسية من جميع الاراضي التي احتلتها في هذه الحرب عدا ميناء بوتي وميناء أنابا، وكذلك معظم شبه جزيرة القرم.

٢- السماح لارمن تركيا بالهجرة إلى الاراضي الروسية (حيث بلغ عدد الارمن الذين رجعوا مع الجيش الروسي المنسحب لداخل بلاده مابين ٦٠- ٩٠ ألف أرمني.

- وهكذا.. وخلال ثلاث سنوات فقط (١٨٢٦- ١٨٢٩م) تمت هزيمة أكبر دولتين إسلاميتين في ذلك الوقت أمام القوات الروسية القيصرية ووقعت القوقاز الجنوبي بأكملها إضافة إلى ولايات جورجيا بأكملها (جورجيا، كاخيتيا، كارتلينا، منجريليا، إيمريتيا، غوريا) بأيدي روسيا القيصرية إضافة إلى إقليم أبخازيا، كذلك شراكسة نهر الكوبان في القوقاز الغربي المحاذي لشبه جزيرة القرم والبحر الاسود.

- في نفس الوقت، فإن هزيمة الدولتين (ايران وتركيا) في الجنوب والشرق والغرب جعل القوقاز الشمالي محطاطاً من جميع الجهات بما فيها الشمالية حيث كانت «روسيا الام» بكل جبروتها قد

نجحت عسكرياً حتى في القوقاز الشمالي حيث إن الانجوش والاستين والقبارطاي ومعظم شعوب شرق الداغستان، وكذلك الجزء السهلي من بلاد الشيشان كان قد خضع للحكم الروسي بل وإرتدت بعض هذه الشعوب للنصرانية مثل شعب الاستين وبعض القبارطاي، ودخلت في خدمة الجيش القيصري كما وأن معظم زعماء قبائل داغستان الشرقية مثل خانية تاركو (وكان لقبه الشمخال) في شمال شرق الداغستان وسكانها هم من قبائل القمق وخانية مختولي وحاكم أفاريا دخلوا رسمياً في خدمة الجيش القيصري طبعاً بالاضافة إلى سكان جورجيا والارمن المسيحيون في الاصل.

- فقط داغستان الوسطى والغربية (وبالتحديد في الاجزاء الجبلية منها) وكذلك المناطق الجبلية في بلاد الشيشان بقيت خارج نطاق السيطرة الروسية وبالتالي فإن مهمة جيوش القوقاز (بعد هزيمة الاتراك والايرانيين في الجنوب والغرب) إقتصر فقط على إخضاع المناطق الجبلية في بلاد الشيشان إلى الشرق من غروزني حيث كانت معظم بلاد الشيشان تقع في هذا الجزء الداخلي والشرقي الجبلي من البلاد حيث تعيش أغلب القبائل الشيشانية، وعلى ضوء المعطيات التي سبق ذكرها أعلاه، فإنه بالنسبة لاوروبا، وكذلك روسيا القيصرية، فإن هزيمة إيران وتركيا في القوقاز ونجاح الروس في إحتلال المناطق المحاذية لنهر التيرك وخط الكوزاك العظيم في داخل القوقاز الشمالي كان معناه من ناحية عسكرية أن حرب القوقاز (أو حملة القوقاز كما سماها الروس) إنتهت من الناحية العسكرية الفعلية لان استكمال إحتلال الداغستان وبلاد الشيشان لم يكن سوى

مسألة وقت وبمثابة «نزهة عسكرية» للقوات الروسية وحلفاؤهم المحليين. «لحسن حظ أوروبا» ولسوء حظ الروس في آن واحد فإن توقعاتهم كانت خاطئة، وإلى أبعد الحدود. حيث إن «النزهة العسكرية» لقوات روسيا القيصرية في داغستان الجبلية وبلاد الشيشان المحاذية لها استمرت مايزيد عن ثلاثين سنة والانتصار على الاتراك والايرانيين، وهما أكبر دولتين إسلاميتين في ذلك الوقت لم يكن انتصاراً للصليب على الهلال كما قال القيصر الكسندر الاول بعد هزيمة الدولتين حيث إن «هلال الاسلام» كان لتوه قد بدأ في البزوغ على جبال الداغستان وجبال بلاد الشيشان وحرب القوقاز الحقيقية لم تكن قد بدأت بعد حيث إن أعلام الحركة المريدية الاسلامية في جبال الداغستان لم تكن قد إرتفعت بعد مزدانة «بكلمات التوحيد بصورة الهلال» والذي أثبت أنه أقوى بكثير من الصليب عندما تُقاس الامور بالشجاعة التي يمنحها كلاهما لاتباعه في ميادين القتال حيث إنه «لا الكوزاك ولا أسيادهم الروس كانوا أنداداً للشيشان والداغستان عندما كان القتال وجهاً لوجه وبالاسلحة البيضاء» (كتاب سيوف الجنة ص ٩١).

- بإختصار.. حرب القوقاز الاولى كانت على وشك البداية «وسيوف الاسلام» في جبال القوقاز كان قد تم شحنها وأصبحت جاهزة للجهاد أو الغزوة بلغة المريدين».

الفصل الرابع

الحركة المريدية

الحركة المريدية

- رغم الهدوء الظاهري الذي كان يسود الداغستان أثناء انشغال الروس بحرب إيران وتركيا في الفترة مابين ١٨٢٦-١٨٢٩م كما سبق ذكره إلا أن المسرح كان يُعد بهدوء ، ولكن بخطوات متسارعة إلى ظهور حركة دينية سياسية في منطقة القوقاز سميت لاحقاً باسم الحركة المريدية ، والتي حملت لواء المقاومة الاسلامية ضد القوات الروسية الغازية لمنطقة القوقاز .

- ففي عام ١٧٨٥م إبان حملة كاترين في القوقاز ظهر الشيخ منصور (أشورما) في بلدة ألدي ببلاد الشيشان ودعا إلى الجهاد ضد الروس من منطلق إسلامي وأحرز انتصارات عدة قبل أن يهزمه الروس في معركة تتارتوب وتفرق بعدها أتباعه من الشيشان والقبارطاي والانجوش وبعض التتار إلى بلادهم . عدا ان الشيخ منصور عاد للظهور في الغرب في بلاد الشراكسة على ساحل البحر الاسود وقام بتحريضهم على القتال ضد الروس حيث استطاع هزيمة الروس في عدة معارك ، ولكنهم أيضاً تمكنوا في النهاية من هزيمته وتفرق الشراكسة من حوله فذهب إلى الاتراك في ميناء أنابا حتى يقود المدافعين عنها ضد أحدى الحملات الروسية عليها لكن نجاح الروس في إقتحام القلعة أدى إلى سقوط الشيخ منصور أسيراً في أيدي الروس وتم إرساله إلى بلاط كاترينا والتي طلبت «مشاهدته» وبعدها أمرت بسجنه ثم قتله لاحقاً .

- على أي حال. دعوة الشيخ منصور الشيشاني للجهاد لم يكن قد سبقها أي إعداد أو تنظيم على عكس الحركة المريدية التي نحن بصدد الحديث عنها الآن، لكن مقاومة الامام منصور التي اتخذت طابع الجهاد في القرن السابع عشر كانت هي البذرة الخصبة لظهور الحركة المريدية الاسلامية في بلاد الداغستان في القرن التاسع عشر والتي حملت لواء الجهاد ضد القوات القيصرية في حرب القوقاز الاولى.

الحركة المريدية

بالنسبة للحركة المريدية، والتي قادت المقاومة الاسلامية في الداغستان وبلاد الشيشان فإنها كانت تتبع الطريقة النقشبندية والتي أسسها محمد البخاري المتوفي سنة ٧٩١ للهجرة وقد ظهرت الطريقة النقشبندية في منطقة القوقاز لاول مرة في أذربيجان وبالتحديد في مقاطعة شيرفان بولاية باكو وإنتقلت من هناك إلى الداغستان على يد محمد اليرغلي (نسبة إلى بلده يرغل وهي قرية في مقاطعة كيورين بالداغستان) ومع أن الحركة في الاساس كانت حركة «إصلاح ديني» صرفة إلا أن محمد اليرغلي أعطاها طابعاً سياسياً.

مع أن محمد اليرغلي هذا لم يتول القيادة الفعلية للحركة انما الذي تولاها هو محمد الغمري المعروف باسم «غازي مولا» وهو من قرية غمري في إقليم أفاريا بالجزء الغربي من الداغستان وهو إقليم يتميز بجباله الجرداء الوعرة (كلمة أفار بالتركية تعني القلق أو المتشرد). ولد غازي مولا في بلدة غمرى وهو نفس بلدة الامام

شامل ثالث أئمة الحركة المريدية، وكان الاثنان صديقين منذ الطفولة لا يفترقان وكان غازي مولا أكبر من شامل بنحو ٥ سنوات. وقد تعلم غازي مولا العربية في قرناي ودرس وشامل الدين الاسلامى على يد أشهر العلماء في الداغستان ثم قام الاثنان بزيارة قرية يرغل حيث تلقيا المبادىء الاولية للحركة الاسلامية الجديدة التي سميت بالمريدية والتي تعني «من تقبل تعاليم الحركة، وبالتالي فإن حرب المريدين هي حرب من أتبع الحركة الاسلامية الداعية إلى الجهاد ضد الغزاة الروس».

- وكما وسبق وذكرنا فإن الحركة أساساً هي حركة إصلاح ديني تدعو إلى تطبيق الشريعة الاسلامية في كل مظاهر الحياة اليومية وإلى التقشف والزهد في الدنيا وسبب ظهور الحركة كان تفشي مايسمى «بالعادات» بين الناس واستخدامها في الحياة اليومية وهذه العادات كان من بينها شرب الخمر وعادات الثأر بين القبائل. وكانت خطيئة شرب الخمر أول مظهر من مظاهر العادات هذه التي حار بها غازي مولا ودعا إلى تركها. الطابع السياسي للحركة جاء وليدة ظروف الاحتلال الروسي للداغستان والتي استخدم فيها الروس القسوة الشديدة ضد من قاومهم من القبائل الداغستانية، وبشكل خاص في إقليم أفاريا الجبلي حيث كانت أفاريا أكثر المناطق مقاومة للروس. أما الولايات الاخرى من الداغستان خاصة الشرقية فقد تقبلت الاحتلال الروسي بل وعرضت خدماتها على القوات الروسية حيث تم إدخالها ضمن القوات الروسية الغازية للقوقاز.

- نمو الحركة المريدية في إقليم أفاريا كان نتيجة إنصهار

الحماس الوطني مع الحماس الديني حيث إن الجانب السياسي للحركة تضمن وجوب المقاومة والجهاد ضد العدو المحتل لبلاد المسلمين.

- وقد قام الامام غازي مولا بتوجيه أول نداء عام لشعوب الداغستان بالجهاد عام ١٨٢٩م فتجمع حوله الكثيرون من شتى أنحاء الداغستان وكانت باكورة أعماله العسكرية مهاجمة بعض القرى التى كان شرب الخمر لا يزال شائعا فيها حيث هاجم قرية أراكاني حيث أمر بسكب جميع الخمور فيها على الارض ثم هاجم قراناي وإربلي وكرر هناك مافعله بأراكاني ثم تحول إلى مياتلي حيث قتل قاضيها لانه لم يلتزم بأوامره.

- هذه الانتصارات الصغيرة شجعت غازي مولا على مهاجمة خونزاخ عاصمة إمارة أفاريا حيث كانت والدة الخان القاصر وإسمها باخوبيخي هي الحاكمة هناك باسم ولدها القاصر وأعلنت ولائها للروس، والذين كانوا يرسلون لها معونات مالية ولكن هجوم غازي مولا فشل ومنُى بهزيمة ساحقة تراجع على أثرها إلى غمري وأعلن للناس بأن هذه الهزيمة النكراء كانت «عقاباً من الله للناس بسبب ضعف إيمانهم وإنغماسهم في الموبقات».

- عندما سمع الروس بما حدث في خونزاخ أرسلو على عجل قوة عسكرية لمساندة باخوبيخي في حالة تكرار غازي مولا الهجوم. وخلال أسابيع قليلة أعاد غازي مولا تنظيم أتباعه وقام هذه المرة بمهاجمة الروس في عدة مناطق وهزمهم كما استولى على خانية تاركي أو تاركو والتي كانت موالية للروس كما حاصر قلعة بورنايا

وكاد أن يحتلها لولا وصول نجدة روسية كبيرة حيث انسحب غازي مولا إلا أنه بعد عشرة أيام عاد وهاجم فينزابنايا (قلعة المفاجأة) وكاد أن يحتلها لولا وصول نجدة روسية كبيرة أنقذت المدينة من السقوط بيد غازي مولا والذي تراجع للغابات وعندما طارده الروس هناك ألحق بهم هزيمة كبيرة وإستولى على مدفع. في نفس الوقت، فإن أحد قواد غازي مولى وهو حمزات (والذي أصبح لاحقاً الامام الثاني) نجح في إشعال الثورة ضد الروس بين قبائل الجارو-بيلوكاني في الجزء الجنوبي من الداغستان المجاور لجورجيا، وعندما حاول الروس قمع الثورة، لحقتهم هزيمة شديدة، وجاء إلى غازي مولا وفد من إقليم تبارسان يدعونه لقيادتهم ضد الروس فلم يتردد وتحرك بسرعة وهاجم دربند وحاصرها ثمانية أيام إلا أنه لم يتمكن من فتحها فتحول إلى مدينة قزليار واستطاع دخولها وغنم منها كثيراً من الاسلاب إضافة إلى عدد من الاسرى.

- هذه الانتصارات السريعة لغازي مولا أثارت حنق وغضب الروس والذين حشدوا قوة كبيرة أوكلت قيادتها إلى البارون روزن عام ١٨٣١م في هذه الاثناء كانت الأجزاء الشرقية من بلاد الشيشان قد أعلنت الثورة على الروس مما دفع الروس إلى قمع الثورة بصورة قاسية للغاية وأدى هذا إلى هروب عدد كبير من شيشان مايسمى بمنطقة إشكيريا المحاذية للداغستان والتحقوا بغازي مولا، والذي ظهر عام ١٨٣٢م في بلاد الشيشان وحصل على عدة انتصارات ودعا القبرطاي إلى الثورة لكنهم رفضوا، ثم قام بمهاجمة نازران (عاصمة الانجوش حالياً) حيث كانت هناك حامية روسية تدافع عنها.

- وكان سقوط نازران يعني تهديد فلادي- كاكفكاز وقطع الاتصال مع جورجيا. غير أن غازي مولا فشل في دخول نازران لان الاوستين (الاوستين) والانجوش الموالين للروس انقضوا فجأة على مؤخرة قوات الامام وقتلوا الجرحى من الشيشان الذين كانوا مع الامام والذي تراجع بعدها وانسحب من حصار المدينة. بعد هذا الفشل أرسل غازي مولا قوة من أتباعه لاقناع شيشان الجبال شرق طريق جورجيا وهم قبائل الكست والفلفاي والانجوشيون الجبليون ونجحت المهمة نجاحاً كبيراً حيث إعتنقوا الاسلام وتركوا الوثنية. أما الخفسوريون المسيحيون فقد صدوا مبعوثيه ورفضوا ترك المسيحية. بعد دخول شيشان الجبال في شرق طريق جورجيا الاسلام قاموا بثورة شاملة في مناطقهم ضد الروس وأعلنوا إنضمامهم للحركة المريدية.

هذه التطورات أزعجت السلطات الروسية والتي جهزت حملة عسكرية قوامها تسعة آلاف رجل ومعهم ثمانية وعشرون مدفعاً، وأوكلت لهذه القوة مهمة سحق ثورة شيشان الجبال في الشرق قبل أن تمتد إلى بقية مناطق الشيشان، وكانت الحملة بقيادة روزن شخصياً ومعه الجنرال فليامينوف. أفضل وصف لهذه الحملة جاء بقلم تورناو والذي رافق الحملة والتي جاء وصفها كما يلي في كتاب جون بادلي الاحتلال الروسي للقوقاز ص ٢٩١- ٢٩٣.

- «في ذلك الوقت سنة ١٨٣٢م لم نكن قد شققنا ممرات عبر الغابات بعد، وفي العشرينات المبكرة من القرن التاسع عشر كان يرملوف قد قام بقطع أشجار لمسافات عرضها مرمى البندقية على

كل جانب من الطريق، ولكن هذه المناطق التي قطعت أشجارها عادت فنمت مرة ثانية بظهور أشجار صغيرة الحجم فيها لا يمكن اختراقها، بحيث اضطررنا لمواجهة القتال في شيشانيا في أصعب الظروف. ويستحق الشيشان كخصوم كل تقدير وإحترام، وفي وسط غاباتهم وجبالهم لا تستطيع أي قوات أن تحتقرهم، فقد كانوا رماة مهرة، شجعاناً لاقصىٰ الحدود، أذكياء في الشؤون العسكرية كما أنهم كبقية سكان القفقاس الآخرين، سريعون في استغلال الظروف المحلية، وينتهزون فرصة كل خطأ إرتكبناه واستخدموه بسرعة فائقة من أجل تدميرنا، والشيشان محاربون أشداء لا يكلون من القتال.

خلال السير كان القتال يجري كله في خطوط التغطية أي في الامام أثناء التقدم وفي الخلف أثناء التراجع وطيلة الوقت تقريباً على الجانبين حيث توجد أصعب الاعمال وأشد الاخطار وكثيراً ماكان القناصة الذين يمشون مثنى مثنى يفقدون بعضهم في الغابة ويضلون. وعندئذ كان ينهض الشيشان وكأنما إنشقت عنهم الارض ويندفعون إلى الازواج المنعزلة ويمزقونهم إرباً قبل أن يهرع رفاقهم لنجدتهم.»

- وبينما كان شيشان الجبال يقاومون تقدم القوات الروسية المكلفة بإخضاعهم. قام غازي مولا بمهاجمة بلدة أمير حاجي يورت على نهر التيرك واستطاع أن يجر خمسمائة من الكوزاك إلى داخل الغابة حيث انقض عليهم وألحق بهم هزيمة نكراء وقتل القائد الروسي وضابطاً آخر إضافة لمائة وأربعة رجال من القوزاق وجرح ثلاثة ضباط وإثنين وأربعين من القوزاق.

- غير أن الحملة الروسية نجحت أخيراً في الوصول إلى قرية غيرمنتشوق وكانت وقتها أكبر وأغنى قرية في بلاد الشيشان حيث كان فيها (٦٠٠) بيت أو أكثر ورغم أن غازي مولا كان قريباً من القرية لحظة وصول الروس إليها إلا أنه تركها للروس وإكتفى بإرسال جماعة صغيرة من المريدين للمساعدة في الدفاع، وقد وصف تورناو ماحدث للقرية الشيشانية كما يلي :

«ولما كان السكان يفتقدون إلى المدافع، فإن محاولة الدفاع عن قرية في أرض شبه مستوية ضد جيش جيد الاعداد ومزود بمدفعية، كانت بالطبع محاولة ميئوساً منها ولكن الدفاع تم في أشد حالات التضحية ولاسيما من قبل عصبة المريدين الصغيرة وعدد قليل من السكان وتم احتلال القرية ماعدا ثلاثة بيوت تحتلها جماعة من الشيشان الشديدي الاخلاص يرافقهم بعض الداغستانيين من المريدين. وعندما سمع الكولونيل فولخوفسكي رئيس الاركان بأن الشيشان الذين أغلقوا على أنفسهم ثلاثة بيوت رفضوا العرض بالاستسلام وكانوا يطلقون النار بشدة وأنهم قتلوا ضابطاً برتبة مقدم وجرحوا عدة جنود، إنطلق فولخوفسكي مع الكولونيل بريمر قائد المدفعية لتسوية الامر بأنفسهم. وكان مطلوباً مني أن أدلهم على الطريق التي سبق وأن وجدتها في القرية وكانت البيوت محاطة بسلسلة ثلاثية من القناصة يرقدون وراء السياج المتشابك والاشجار، ولم يجرؤ أحد على الظهور أمام العدو لان الغافلين كانوا يعاقبون برصاصات توجه بمنتهى الدقة التي لا تخطىء، ورقدنا نحن أيضاً وراء السياج، لاننا لم نر فائدة من الكشف عن أنفسنا

لنصبح أهدافاً سهلة . وأحضرنا مدفعاً خفيفاً ، وبدأت القنابل تحرث البيوت الثلاثة من طرف آخر ، هرع إلينا من يخبرنا بأن قذائفنا تصيب أفرادنا من الجهة الثانية ، ولهذا أعطيت الاوامر بإيقاف الرماية وحرق البيوت من جانب واحد وتطوع رجلان من الهندسة للقيام بالعملية فأخذا يدفعان أمامهما لوحاً من البلوط كدرع واق لهما وأخذا منها حزمة من القش وأغصان الاشجار وزحفا إلى الجانب الضيق للبيت الابعد من غيره وأشعلا النار في الجدار الذي أخذ يلتهب ، واستمر الشيشان في الرماية حتى من هذا الجانب إلا أن أبعدتهم الحرارة الهائلة عن الجدار المحترق . وقد انضم اثنان من المدفعية للمهندسين وتسلقوا السطح المستوي بجانب الحائط المشتعل وأخذا القنابل اليدوية من رجال الهندسة وأشعلا الانابيب ورمياها من خلال المدخنة العريضة إلى داخل البناء الذي كان فيه كثير من المدافعين ، وسمعنا القنبلة اليدوية الاولى تنفجر ولم نسمع القنابل الاخرى . ثم علمنا لاحقاً بأن الشيشان «جلسوا عليها» وأفرغوها قبل أن يشتعل المسحوق وأخذت النار تندلع رويداً رويداً وبالتدريج أخذت النيران تمتد إلى البيتين الآخرين بحيث لم يتُرك للعدو خياراً سوى الاستسلام أو الموت حرقاً . وكان فولخوفسكي متألماً لمصير الشجعان وأمر القوزاقي من مزدك العجوز ارشتشيكوف الذي كان يعمل مترجماً أن يقترح عليهم إلقاء أسلحتهم واعداً إياهم في هذه الحالة الابقاء على حياتهم إضافة إلى منحهم حق تبادل الاسرى الروس بهم في حالة إستسلامهم ، وذلك الحق أعطاهم أملاً بالرجوع إلى بيوتهم وعائلاتهم في يوم من الايام . وتوقفت الرماية عندما تقدم أتار شتشيكوف ونادى باللغة الشيشانية أنه يريد التفاوض

فاستمع المدافعون كلى الاقتراح وتحادثوا مع بعضهم لفترة بضعة دقائق، ثم خرج شيشاني نصف عارٍ، وقد إسودّ جسمه من الدخان وتبع ذلك وابل من الرصاص من جميع فتحات الرمي من داخل البيوت وكان معنى ماقاله «نحن لا نريد منكم الابقاء على حياتنا، والمكرمة الوحيدة التي نريدها من الروس أن يخبروا عائلاتنا أننا متنا كما عشنا رافضين الخضوع لاي مغير أجنبي».

- وأعطيت الاوامر لحرق البيوت على سكانها، وكانت الشمس قد غربت ولم يتضح صورة الدمار سوى توهج اللهيب. أما الشيشان فقد عقدوا العزم على الموت، وشرعوا ينشدون أنشودة الموت عندهم وكانت أصواتهم عالية في البداية ثم أخذت في الخفوت شيئاً فشيئاً بتناقص عددهم تحت تأثير النار والدخان غير أن للموت حرقاً آلاماً مروّعة بحيث لا يمكن لجميع الناس تحمله. وفجأة فتح باب أحد البيوت المحترقة، وعلى عتبة الباب وقف إنسان، وكان هناك وميض وأزّت رصاصة مرت قرب آذاننا. ثم أخذ الشيشاني يلوح بسيفه واندفع تجاهنا وكان أتار شتشيكوف يلبس درعاً فسمح لذلك الشخص المتهور بالاقتراب منه إلى مسافة عشر خطوات وسدد سلاحه نحوه بهدوء وأطلق رصاصة على صدره العاري فقفز الشيشاني عالياً في الهواء ثم سقط أرضاً، ونهض ثانية واقفاً على قدميه، ومدّ نفسه بأقصى ما يستطيع وانحنى ببطء إلى الامام وسقط قتيلاً على ترابه الوطني. وبعد خمس دقائق تكرر المشهد، إذ خرج آخر وأطلق الرصاص من بندقيته، ثم أخذ يلوح بسيفه ومر من خلال صفين من القناصة. وأخذت البيوت المحترقة تتساقط ويتناثر

شررها، وقد زحف ستة من الداغستان الجرحى من الخرائب التي يلفها الدخان وبقوا أحياء بأعجوبة، فرفعهم الجنود ونقلوهم إلى مركز الاسعاف. أما الشيشان، فلم يؤخذ أي واحد منهم حياً بل أنهى إثنان وسبعون شيشانياً حياتهم وسط اللهيب.

(من كتاب «الاحتلال الروسي للقوقاز» ص ٢٩٦- ٢٩٩).

- ماحدث في قرية غير منتشوق تكرر في إحدى وستين قرية شيشانية دمرت تدميراً كاملاً.

- سقوط شيشانيا الشرقية الجبلية بيد الروس حرم الامام غازي مولا من عمقه الاستراتيجي في بلاد الشيشان فتراجع إلى الداغستان وشرع مع شامل في إعداد الدفاع النهائي عن «غمرى» معقله الرئيسي وعاصمة حركته المريدية لانه عرف أنه سيكون الهدف التالي للروس والذين شرعوا بالفعل بالتحرك نحو غمري آخر معاقل الامام غازي مولا وحركته المريدية.

إستشهاد غازي مولا

- بعد إخضاع الشيشان، فإن الخطة الروسية كانت تقضي بالتقدم سريعاً إلى الداغستان ومحاصرة الامام غازي مولا في معقله بقرية غمري والقبض عليه حياً أو ميتاً وبالتالي اقتلاع الحركة المريدية من جذورها. وقد وصل إلى غمري عدد من الشيشان ليخبروا غازي مولا بأن الروس سيهاجمونه عما قريب وعليه اتخاذ احتياطاته ودفاعاته بسرعة لان الجيش الروسي الروسي قد شرع في تجهيز نفسه استعداداً للجولة الحاسمة في الداغستان ضده. وإختار غازي مولا وشامل البقاء في غمري، وخوض معركتهم الاخيرة فيها لانها إضافة إلى موقعها الحصين في أعالي الجبال فهي مسقط رأس الاثنين حيث ولد وترعرع كلاهما فيها. وقد شرع الاثنان في بناء سلسلة من الخطوط الدفاعية حول القرية الجبلية كانت مستحيلة الاقتحام بدون مدفعية تقوم بتدميرها، وهذه المدفعية كانت متوفرة بحوزة الروس.

- الجيش الروسي الذي كُلّف بإحتلال غمري كان بقيادة جنرالين هما فيليمانوف ومساعده كلوجناو وانضم إليهم عدد من حكام وأمراء الخانيات الداغستانية والذين زودوا الجيش الروسي بالذخائر والمؤن وحتى الفرسان المقاتلين الذين سماهم الروس «بالميليشيا الوطنية» ومن إسم كلوجناو (كلوك فون كلوجناو) يتبين أنه ألماني ووصل الجيش الروسي إلى مشارف غمري واتخذ الجنرال فيليمانوف مجلساً له على طبل ورفع منظاره إلى عينيه ليلقي نظرة

على دفاعات القرية ليقرر بعدها خطة الاقتحام المناسبة. وقد لمحه المدافعون عن غمري من على بعد فأمطروه بوابل من الرصاص لكن فيليمانوف المعروف عنه «برباطة الجأش» لم يعبأ بها ووبخ هيئة أركانه الذين سارعوا للاحتماء خلف الصخور هرباً من الرصاص المنهمر عليهم كالمطر. وبدأت معركة غمري في ١٧ أكتوبر ١٨٣٢م بهجوم مستميت من القوات الروسية والتي كان أولى أهدافها تأمين منطقة مستوية تصلح لنصب مدفعيتهم فيها لقصف دفاعات المريدين المنيعة على الهجمات التقليدية بالرجال ومنيت الموجة الاولى من الهجوم بخسائر فادحة للروس نظراً لان المريدين لم يكونوا أقل إستماتة في الدفاع. وتكرر نفس الشيء مع الهجمات اللاحقة بحيث إنقضت عدة أيام على هذا الحال.

- نقطة التحول في القتال كانت عندما نجح الروس وبمساعدة الميليشيا الوطنية من سلوك درب وعر للغاية يضيق أحياناً إلى درجة أن فرداً واحداً فقط يستطيع المرور منه وبصعوبة، ومفاجأة المدافعين من هذه الناحية التي لم يعتقد غازي مولا أو شامل بأن الروس قادرون على إجتيازه ومعهم مدافعهم، وبالتالي كانت المفاجأة تامة عندما إنهمرت نيران المدفعية الروسية على المدافعين عن الاستحكامات الخارجية والتي لم تتوقع قدوم الروس من خلفهم حيث إن غازي مولا وشامل كانا قد اعتمدوا في مراقبة هذا الممر الحيوي وحمايته عند اللزوم على حمزات بك أحد نواب غازي مولا، والذي كان على رأس مجموعة من فرسان المريدين على مقربة من غمري وبالتحديد في قرية أرغناي عندما سمع أصوات

المعركة التي إبتدأت فهرع بفرسانه نحو غمري ولكن عندما شاهد القوات الروسية وقد أحكمت الحصار حول غمري وكثرة عددهم فإنه ولىّ هارباً مع جماعته تاركاً الامام غازي مولا لمصيره. وعندما شاهد المدافعون عن المتاريس الخارجية القوات الروسية تتقاطر من الجهة التي كان من المفروض أن يحميها حمزات بك، فإنهم أيقنوا أنهم سقطوا في الفخ الروسي المحكم ولا مجال لانتصارهم ولكنهم صمموا على أن يكون صمودهم مشرفاً لحركتهم المريدية ويجعلوا الروس يدفعون غالياً ثمن انتصارهم. الوصف التالي للمعركة الاخيرة داخل غمري هو من كتاب «سيوف الجنة» ص ٧٢- ٧٤.

- عندما بدأ القتال حول الدفاعات الخارجية المنهارة. صمد المريدون بشجاعة وبدأوا بترديد أنشودة الموت لديهم وانتظروا بهدوء اقتراب الروس إلى مدى سيوفهم وبعضهم قام بربط أنفسهم من الارجل لبعضهم البعض مستخدمين أحزمة سيوفهم وشكلوا سداً بشرياً بأجسادهم المتلاصقة وكان هذا الاجراء أحد تقاليد المريدين عندما يكون القتال هو القتال الاخير. تقدم الروس نحو الاستحكامات وهم مندهشون للهدوء السائد فيها. ولكن عندما اقتربوا من الاسوار المهدومة انقض عليهم المريدون من كل جانب ونشبت معركة دموية يائسة بين الطرفين، بحيث إنه لا المدافعون طلبوا الرحمة ولا المهاجمون منحوها، وفي إحدى مواقع القتال نجحت الفرقة ٤١ الروسية في دفع المريدين للخلف بإتجاه الهاوية العميقة أسفل القرية بحيث لم يكن هناك خيار أمامهم سوى الموت والسيف بأيديهم أو القذف بأنفسهم في الهوة العميقة حيث الهلاك

ريدين قاتلوا بضراوة وفي إحدى المواقع قتل
ـة ألقت بنفسها في الهوة العميقة بدلا من
أحد شهود العيان. أما شاهد آخر فذكر بأن
بنفس شجاعة المريدين وضراوتهم بحيث إن
أيدي وسلاح أبيض وكان الروس يقذفون
ن إلى أسفل الهاوية وكان القتال شرساً إلى
يقذفان بأنفسهما من أعلى القمة إلى الهوة
سقوط، كان قتالهم لبعضهم مستمراً وكأن
ـدي أي إلى آخر لحظة من العمر.

كانت الدفاعات الخارجية قد سقطت بيد
رية نفسها أي غمري حيث تم فيها الصمود
قى معه من المريدين وعددهم خمسمائة
روسي. القتال داخل القرية لم يكن أقل
تحكامات الخارجية.

اقتحام القرية كان حتمياً وهذا ماحدث
ل القرية والتي لم يبق يقاوم فيها سوى
ين من المريدين، والذين كانوا يطلقون
تناهية ويقتلونهم واحداً بعد الآخر كلما
أمر فيليمانوف بدك البيتين بالمدفعية
عية تحول البيتان إلى كتلة من اللهب
دى أو على شكل أزواج وهم يحملون
كان المريد يتقدم أولاً بخطوات بطيئة

المحتوم. لكن المريدين قاتلوا بضراوة وفي إحدى المواقع قتل منهم ستون، والبقية ألقت بنفسها في الهوة العميقة بدلا من الاستسلام كما روى أحد شهود العيان. أما شاهد آخر فذكر بأن القوات الروسية قاتلت بنفس شجاعة المريدين وضراوتهم بحيث إن القتال أصبح قتال أيدي وسلاح أبيض وكان الروس يقذفون بالجرحى من المريدين إلى أسفل الهاوية وكان القتال شرساً إلى درجة أن الجانبين كانا يقذفان بأنفسهما من أعلى القمة إلى الهوة السحيقة، وحتى أثناء السقوط، كان قتالهم لبعضهم مستمراً وكأن قتالهم كان من النوع الابدي أي إلى آخر لحظة من العمر.

- وعند حلول الظلام كانت الدفاعات الخارجية قد سقطت بيد الروس ولم يبق سوى القرية نفسها أي غمري حيث تم فيها الصمود الاخير لغازي مولا وماتبقى معه من المريدين وعددهم خمسمائة مقابل عشرة آلاف جندي روسي. القتال داخل القرية لم يكن أقل دموية من القتال حول الاستحكامات الخارجية.

- وقد نجاح الروس في اقتحام القرية كان حتمياً وهذا ماحدث بالفعل، وتقدم الروس داخل القرية والتي لم يبق يقاوم فيها سوى بيتين صمد فيها نحو خمسين من المريدين، والذين كانوا يطلقون الرصاص على الروس بدقة متناهية ويقتلونهم واحداً بعد الآخر كلما تقدموا بإتجاه البيتين وعندها أمر فيليمانوف بدك البيتين بالمدفعية وبعد عدة رشقات من المدفعية تحول البيتان إلى كتلة من اللهب فخرج منهما المريدون إما فرادى أو على شكل أزواج وهم يحملون سيوفهم وكان بينهم شامل. وكان المريد يتقدم أولاً بخطوات بطيئة

ثم فجأة يهرع نحو الروس المتقدمين، مستغلاً الظلام وعدم وضوح الرؤيا، ويجندل إثنان أو ثلاثة من الروس بسيفه الذي كان يهوي من اليمين ومن اليسار على رؤوس وأجسام الجنود الروس المتقدمين قبل أن يسقط صريعاً إما بطلقة بندقية أو طعناً بالحراب.

- ومن بين هؤلاء الخمسون مريداً، نجح اثنان فقط من الهرب وكان أحد هؤلاء شامل، وقد وصف أحد الضباط الروس الذين شاركوا في الهجوم على غمري كيفية نجاح شامل في الهرب من الروس المحيطين به وهذا الوصف جاء في كتاب جون بادلي (الاحتلال الروسي للقوقاز ص ٣٠٢) (وكتاب سيوف الجنة للمؤرخة الامريكية لزلي بلانش ص ٧٣) كما يلي:

- لقد كان الوقت ظلاماً وعلى ضوء النار المشتعلة بالمنزلين رأينا رجلاً يقف على عتبة أحد المنزلين والذي كان مبنياً على أرض مرتفعة قليلا عن مكان وقوفنا. وهذا الرجل والذي كان طويل القامة وجسمه قوي ومتين، وقف ساكناً بدون حراك وكأنه يعطينا الوقت الكافي لاحكام تصويب بنادقنا نحوه. وفجأة وبقفزة حيوان بري قفز من فوق الصف الاول من جنودنا والذين كانوا على وشك تصويب بنادقهم نحوه لقتله. وهبط الرجل خلف هذا الصف الاول من جنودنا وبمجرد هبوطه التفت بسرعة نحو جنود الصف الاول وبحركة سريعة للغاية بيده اليسرى الحاملة للسيف (الامام شامل كان أعسر) والتي قامت بحركة شبه دائرية مزق فيها ثلاثة جنود، ولكن جندياً رابعاً طعنه بالحربة في صدره، إلا أنه ومن غير فزع أمسك الحربة بيد وقتل الجندي الذي طعنه باليد الاخرى ثم انتزع الحربة من

صدره، وبقفزة هائلة أخرى كان قد اجتاز إلى الغابة المجاورة حيث اختفى في الظلام بينما كنا نحن لا نزال تحت صدمة المفاجأة حيث إن جميع ماسبق ذكره حدث خلال دقيقة ونصف الدقيقة تقريباً.

- في صباح اليوم التالي بدأ الروس في البحث عن الامام غازي مولا بين القتلى المتكومين من المريدين داخل القرية حول المنزلين اللذين تم فيهما الصمود الاخير، ولفت انتباه الروس إلى شكل مهيب لرجل ميت كان أثناء رقوده ميتاً يتخذ وضع الصلاة عند المسلمين وإحدى يديه ممسكة بلحيته بينما الاخرى تشير إلى السماء. وعندما طُلب من «الميليشيا الوطنية» وبعض المواطنين من سكان غمري التعرف على هذا الرجل. تعرفوا على غازي مولا قائد الحرب الجهادية المقدسة وقد فرح الروس كثيراً لتأكدهم من موته بينما حزن أتباعه ومؤيدوه حزناً بالغاً وقد رفض الكثيرون التصديق بأن «ولي الله في الارض يموت بحربة كافر» ولذلك فقد استمر الروس في عرض جثته بضعة أيام لاقناع السكان بحقيقة موته، وذلك للحصول على خضوعهم، ثم أخذت جثة الامام إلى تاركو ومنها إلى قلعة بورنايا حيث تم دفنها.

- وبسقوط غمري ظن الروس بأنهم أحكموا وبشكل نهائي قبضتهم على الداغستان، وبأن الحركة المريدية قد إنتهت وكالعادة كان الروس مخطئين فإن هروب شامل كان أكبر نصر للحركة المريدية. حيث سيعود شامل بعد سنوات لتعود الحركة المريدية ويحتل بورنايا ويستخرج منها جثة الامام غازي مولا وتُعاد إلى مسقط رأس الامام الشهيد في قرية غمري لتدفن فيها.

- بعد أن هرب شامل من غمري كما سبق ذكره فإنه بقي مختبئاً في الغابة لمدة ثلاثة أيام وكان مصاباً بكسر في أحد أضلاعه إضافة إلى جرح الحربة. وبعد استرداد قوته قليلاً استطاع شامل الوصول إلى قرية أونتسكول حيث خبأه سكانها وقاموا بعلاج جروحه وبقي شامل هناك على فراش المرض نحو خمسة وعشرين يوماً قضاها بين الحياة والموت لان جرح الحربة كان قد إخترق رئته، لكن قدوم صهره ووالد زوجته وإسمه عبدالعزيز وكان طبيباً مشهوراً في الداغستان ساعد على سرعة شفاء شامل باذن الله تعالى.

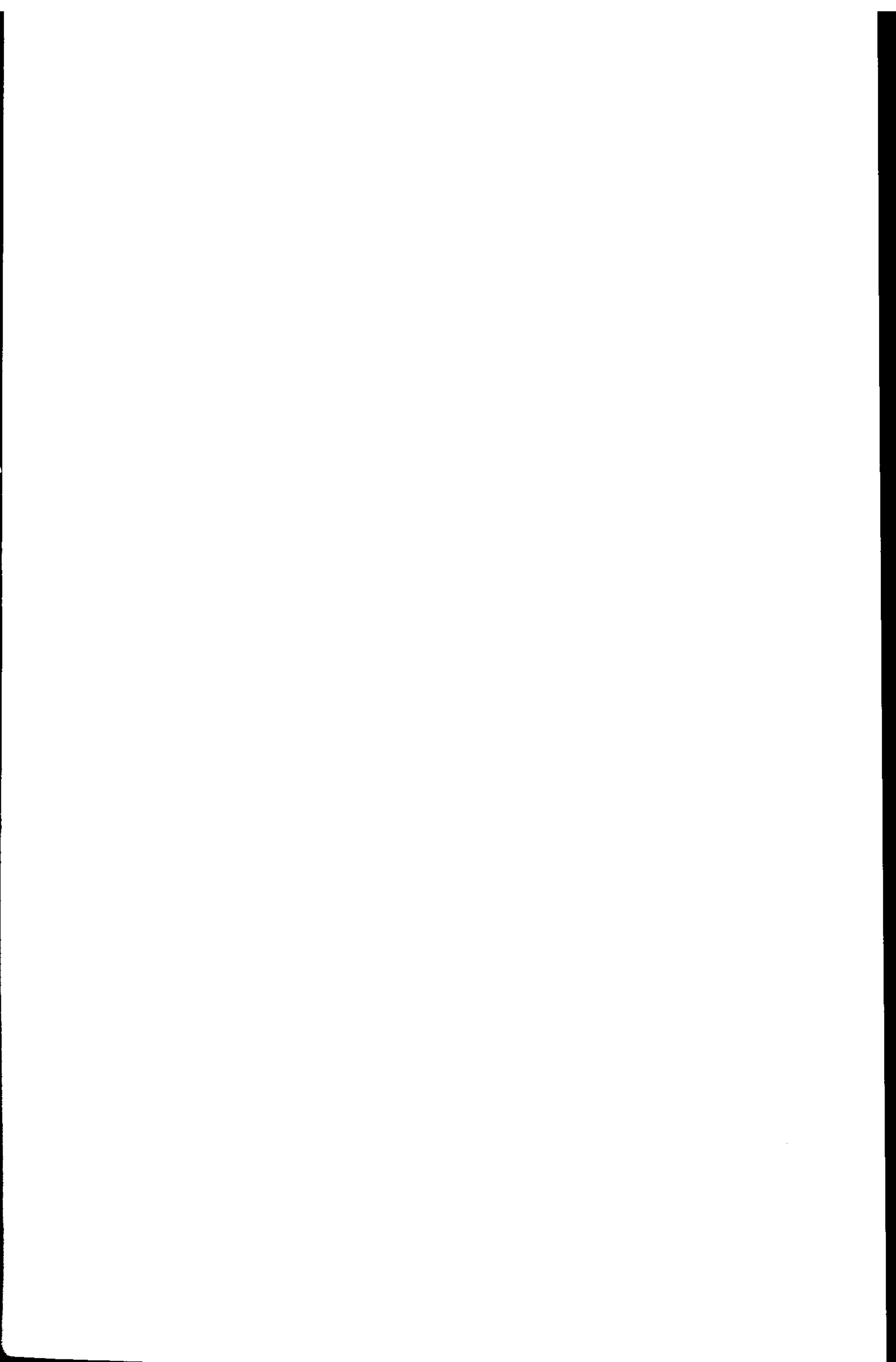
- بالنسبة للحركة المريدية، فإن استشهاد غازي مولا واختفاء شامل المصاب بجروح خطيرة، أدى إلى تنصيب حمزات بك إماما ثانيا للحركة..

- غير ان قيادة حمزات للحركة المريدية لم يحدث فيها شيء يذكر سوى قيامه وبطريقة غادرة بقتل أبناء باخو بيخي زعيمة خونزاخ عاصمة أفاريا والتي سبق لها أن استطاعت هزيمة غازي مولا كما سبق ذكره. وجاء قتل أبناء باخوبيخي بناء على تحريض من الخان أصلان خان زعيم غازي كموخ الواقعة جنوب الداغستان والذي صمم على الانتقام من باخوبيخي لانها رفضت تزويجه إبنتها سلطانيتا وفضلت عليه شمخال (لقب الحاكم) تاركو. وقد وجد أصلان خان آذاناً صاغية لدى حمزات فقام بقتل ثلاثة أبناء زعيمة خونزاخ والتي كانت أرسلتهم رهائن عند حمزات ضماناً لحسن سلوكها نحو المريدية.

- ونتيجة هذا العمل الغادر فقد دفع حمزات حياته ثمناً لهذا

الغدر حيث تم إغتياله من قبل إخوة الرهائن بالرضاعة وكان أحدهم يُدعى «الحاج مراد» والذي سيلعب دوراً هاماً في الحركة المريدية لاحقاً.

- اغتيال حمزات بعد عامين فقط من توليه زعامة الحركة المريدية أفسح المجال لاستلام شامل زعامة الحركة المريدية، وكانت هذه النقطة تحول رئيسية في تاريخ الحركة كما سيرد ذكره لاحقاً حيث إن اسم شامل تعدى حدود القوقاز إلى أوروبا والعالم الاسلامي لان فترة زعامته للحركة المريدية كانت «العصر الذهبي» للحركة المريدية الاسلامية في شمال القوقاز.





الفصل الخامس

الإمام شامل

الامام شامل

لمحة عن طفولة شامل:

عندما ولد شامل عام ١٧٩٨م أي بعد ولادة الامام غازي مولا بخمس سنوات، فإن اسمه كان علي ولكن بسبب ضعفه ومرضه في السنوات الستة الاولى من عمره، فإنه وحسب المعتقدات المحلية في الداغستان في مثل هذه الحالات، فإنه تم تغيير اسمه إلى «شامل» وهو عند الداغستان من أسماء الله الحسنى لانه يعني «المحيط بكل شيء». ومن الغريب بأن صحة شامل بدأت تتحسن بشكل ملحوظ منذ تغيير اسمه من علي إلى شامل، بل وأصبح قوياً ونشيطاً على غير العادة وأصبح شامل يتدرب على السيف والمبارزة والركض والقفز بحيث ذُكر عنه بأنه كان يستطيع القفز فوق حفرة عرضها ٢٧ قدماً وفوق حبل يحمله رجلان متوسطا القامة كما أنه كان يقفز على الحصان بسهولة ثم يهرول به ويغير وضع الركوب أثناء جري الحصان من خلال الانتقال من تحت الحصان، في منطقة البطن إلى الجهة الاخرى.

والد شامل واسمه دنغان كان سكيراً مما كان يحرج شامل بين أصحابه ولهذا فعندما لم تنفع محاولاته لثني والده عن شرب الخمر فإنه هدد بقتل نفسه اذا لم يحقق والده طلبه ولأن دنغان كان يحب ولده شامل كثيراً فإنه أقلع عن السكر وعاش متزنا بقية عمره. وكان أول معلم لشامل هو غازي مولا والذي كان يكبر شامل بخمس

سنوات وأصبح الاثنان صديقين لا يفارقان بعضهما البعض ودرساً سوياً العلوم الدينة وقاما بزيارة قرية يرغب حيث تم تلقينهما سوياً مبادىء المريدية. وبالطبع، فإنه عندما أصبح غازي محمد أول إمام للحركة المريدية في الداغستان، فإن شامل كان الرجل الثاني في الحركة بعد غازي محمد. كما سبق ذكره فإن شامل كان من ضمن المريدين في غمري حين اقتحمها الروس.

كيف أصبح شامل إماماً:

بعد استشهاد غازي محمد، فإن شامل كان أحد رجلين تمكنا من الهرب والنجاة من القتل في معركة غمري لكن شامل أصيب بجروح بليغة واختفى عن الانظار ليداوي جروحه وبالتالي فإن «حمزات» تسلم الامامة لكنه قتل بعد وقت قصير. وحين قُتل حمزات، فإن شامل كان بعيدا عن خونزاخ وعند سماعه أنباء مقتل حمزات جمع قوة من الخيالة وذهب إلى بلدة غوتساتل حيث كان يقيم عم الامام حمزات والذي كان يحتفظ بأموال الحركة المريدية التي وضعها لديه حمزات وقام عم حمزات بتسليم شامل هذه الاموال وعاد شامل إلى أشيلطا حيث نودي به إماماً للحركة ثم غادر شامل اشيلطا إلى أخولكو حيث اتخذها عاصمة جديدة له لانها تتمتع بجميع المزايا التي توفر الحماية الطبيعية له ضد القوات الروسية. وكلمة أخولكو باللغة الداغستانية (التتارية كما يسميها الروس خطأ) تعني المكان الذي يتم اللجوء إليه في لحظات الخطر لانها توفر الحماية.

وقد شرع شامل في تنظيم الحركة المريدية من ناحية عسكرية

بحيث كان هذا التنظيم كما يلي :

١ - اختيار مائة من أشد رجال الحركة إخلاصاً له ويكون هؤلاء بمثابة «نواب» شامل في القرى والمدن .

٢- في المنزلة الثانية يأتي «المرشد» وهي درجة أقل من النائب بقليل وكان عددهم نحو ألف ويعتبرون بمثابة الحرس الشخصي للامام وكانوا يختارون عادة من أولئك الذين أثبتوا ولائهم المطلق للامام وشجاعتهم في ميدان المعارك . وكان هؤلاء بمثابة القادة الميدانيين في المعارك .

٣- في الدرجة الثالثة يأتي «المريد» وهم بمثابة الجنود المقاتلون تحت إمرة المرشدين وكانوا مقسمين إلى وحدات تتألف كل منها من خمسمائة مقاتل موزعين على وحدات أصغر تضم مائة مقاتل وهذه الوحدة بدورها تقسم إلى عشرة وحدات تضم كلا منها عشرة مقاتلين .

وفي حالة الحاجة إلى مقاتلين ليحلوا مكان الذين يسقطون في المعارك أو بسبب قرب نشوب معركة حاسمة كبيرة ، فإن كل منزل وأسرة في مناطق حكم المريدية ، كان عليها تقديم مقاتل واحد على الاقل . وبهذا التنظيم الذي يشبه تنظيم الكتائب والسرايا في الجيوش النظامية فقد استعد شامل لحرب طويلة ضد الروس بعد أن أكمل هذا التنظيم والحشد والذي استغرق ثلاث سنوات (١٨٣٤ - ١٨٣٧) .

وخلال هذه السنوات الثلاث التي هدأ فيها شامل ، فإن الروس ركزوا قوتهم على الشيشان والذين دمرت بلادهم إلى درجة كبيرة واحتل الروس مايسمى بشيشانيا السهلية والتي تقع إلى الغرب

والشمال من نهر أرغون، أما شيشانيا الكبرى وهي المنطقة الجبلية من بلاد الشيشان حيث يعيش أغلب الشيشان وتقع إلى الشرق والجنوب من نهر أرغون فقد كان نجاح الروس فيها محدوداً لانها منطقة جبلية وعره التجأ إليها معظم المقاتلين الشيشان فراراً من قصف المدفعية الروسية والتي كانت أقل تأثيراً في الجبال عنها في السهول نظراً لصعوبة نقلها إلى المناطق الجبلية إضافة للمناعة الطبيعية التي كانت الجبال تعطيها للمقاتلين الشيشان مقارنة بالبيوت والاكواخ الخشبية في المناطق السهلية.

كما ان الروس وقد وصلتهم أخبار استعدادات شامل في الداغستان من حاكم أفاريا المؤقت الذي عينه الروس بعد هزيمة الامام غازي محمد عام ١٨٣٢م في أفاريا وكان اسم هذا الحاكم الخائن أحمد خان المختولي. وقام أحمد خان بطلب مساعدة الروس للقضاء على نفوذ شامل في الداغستان قبل استفحال أمره، وقد تجاوب الروس مع هذا الطلب وأرسلوا حملة عسكرية بقيادة الجنرال فيسى لاحتلال أشيلطا وهي أحدى قواعد شامل الرئيسية وتم تدميرها وحرقها بعد معركة دموية ثم تقدم الروس لقرية تيليتل وهي معقل آخر من معاقل الامام شامل ولكن أكبر حجماً من أشيلطا وهاجم الروس القرية، وبعد أن احتلوا نصفها عرض شامل الصلح والخضوع فوافق الروس وقام شامل بتوقيع وثائق الخضوع مع نوابه تاشو حاجي وكييت محما على أن يبقى شامل معترفاً به من الروس كزعيم ديني للداغستان. والواقع أن الروس قبلوا بالصلح بعد تزايد الخسائر بين صفوفهم حيث إن حملة أشيلطا وتيليتيل كلفتهم أكثر

من ألف جندي وثلاثين ضابطا إضافة لخسارة عدد كبير من الخيول والمدافع والمؤن.

وانسحب الروس من تيليتيل وأرسل الجنرال روزن القائد العام لقوات القيصر في الداغستان، رسالة للقيصر يخبره فيها بأن الداغستان أصبحت كلها تحت سيطرة القيصر.

أما شامل فقد عاد لاخولكو وهو مصمم على الانتقام للتدمير الشديد الذي لحق بأشيلطا وتيليتيل لكنه بقي هادئاً طوال عام ١٨٣٨م.

وفي آذار ١٨٣٨م تم تعيين الجنرال جولفين بدل روزن كقائد عام وطلب منه القيصر احتلال أخولكو عاصمة شامل وتدمير قوته المتنامية هناك وقام الجنرال جولفين بإسناد مهمة احتلال أخولكو إلى الكونت غراب ووضعت تحت تصرفه جيشاً يقدر بعشرة آلاف مقاتل يساندهم نحو خمسة آلاف من رجال خانات وأمراء الداغستان الموالين للروس وزحف هذا الجيش إلى أخولكو وبدأت المعركة بقصف مدفعي مكثف على القرية التي كانت تضم نحو أربعة آلاف نسمة ثم بدأ اقتحام القرية من الاسوار الخارجية لها، وحيث إن شاملا كان قد ارتفعت خسائره بسبب المدفعية وتم حصاره من كل جانب، فقد عرض الصلح وتوسط زعيم قرية تشيركي جمالا ستارشينا في عملية وقف القتال وطلب الجنرال غراب أن يرسل شامل ولده جمال الدين رهينة لدى الروس ليثبت حسن نواياه فأرسل شامل جمال الدين البالغ من العمر اثنتي عشر سنة رهينة للروس على أن يبقى في رعاية ستارشينا زعيم قرية تشيركي وأن يُسمح لشامل

بالبقاء في الداغستان.

وكعادتهم دائماً فإن الروس نكثوا بوعدهم ورفضوا بقاء شامل في جبال الداغستان كما تم إرسال ولده جمال الدين إلى بلاط القيصر في سان بطرسبرج ليقوم القيصر بتربيته حيث أصبح جمال الدين بعد سنوات ضابطاً في الحرس القيصري.

أما شامل - وقد استشاط غضباً لنكث الروس بوعدهم - فقد صمم على المقاومة وارتد للاسوار الداخلية لاخولكو والتي هاجمها الروس. والوصف التالي يبين القتال الدموي الذي حدث في أخولكو صباح ٢٢ آب ١٨٣٩ كما جاء في كتاب الاحتلال الروسي للقفقاس (أنظر المراجع).

«وفي صباح ٢٢ آب، استأنف الروس هجومهم، غير أنهم أصيبوا بالدهشة، عندما لم يجدوا مقاومة. وكان خط التحصينات الخارجي، الذي جرى الدفاع عنه في السابق ببسالة، خالياً هذه المرة. وتجمع الجنود الروس فيه، ثم تجاوزوه، وسيطروا على معظم أخولكو الجديدة. ووجدوا في القرية بعض السكان، ممن بقوا هناك، بينما حاول الباقون أن يهربوا عن طريق الهوة، (وتبع ذلك قتال يائس، حتى أن النساء كن يدافعن عن أنفسهن بشراسة، وكن يقذفن بأنفسهن دون سلاح، على صفوف الحراب الروسية المشرعة، وفي هذه الاثناء أحضر مدفعان جبليان، وصوبا على أخولكو القديمة، التي لم تصلها بعد أعداد كبيرة من اللاجئين الهاربين، وشوهد العديد منهم يتسلقون الصخرة المقابلة، أو ينزلون من الممرات الضيقة الخطرة، إلى جسر الالواح الخشبية، الذي كان

مغروسا بعمق، وأوجد معبرا فوق الهوة، يرتفع سبعين قدما عن مجرى النهر. وانطلق الروس الذين على الهضبة في إثرهم، وفي ذات الوقت تقدم رتل تارازيفتش عبر الشُعب، (الممر الضيق)، وتسلقوا الصخور، واستولوا على الجسر، ووصلوا سطح أخولكو القديمة، قبل أن تشعر بهم الحامية. وعندما تنبهت الحامية أن العدو أحدق بها، أطلقت وابلا من النيران، لكن الوقت فات، فقد تدفق الروس المنتصرون، وأمكن الاستيلاء على الشطر الغربي من النتوء، الذي كان بإمكانه الصمود، ولو لوقت قصير، لو دمّر الجسر في الوقت المناسب. وفي حرب اليومين الاخيرين، فقد الروس (١٥٠) قتيلا، بينهم (٦) ضباط، و(٤٩٤) جريحا، ومصابا برضوض، بينهم (١٥) ضابطا. وتم الاستيلاء على أخولكو أخيرا، لكن القتال استمر اسبوعا، مع مارافقه من الاهوال المعتادة، في حروب القفقاس، وكان لا بد من أخذ كل كوخ حجري، وكهف بقوة السلاح. وقد رفض الجبليون الاستسلام، رغم أن موقفهم كان ميئوسا منه، ودافعوا عن أنفسهم بشراسة، نساء وأطفالاً، يحملون الحجارة، والخناجر في أيديهم، وكانوا يلقون بأنفسهم على الحراب، أو يقذفون بأنفسهم من المرتفعات على الصخور، وهم يائسون، حيث ينتظرهم الموت المحتم. ومن الصعب أن نتصور، مشاهد هذا الصراع المتعب، المريع. فقد كانت النساء يقتلن أولادهن بأيديهن، حتى لا يقعوا في يد الروس، وهلكت أسر بكاملها، تحت خرائب بيوتها. كما أن بعض المريدين، الذين أنهكتهم الجراح، حاولوا مع ذلك كله، أن يبيعوا أنفسهم بأغلى الاثمان. فكانوا يتظاهرون بأنهم يريدون تسليم أسلحتهم، ثم

يغدرون بالجنود، الذين كانوا يحاولون تسلمها منهم. وبهذه الطريقة مات تارازيفتش وقد جابه الروس صعوبات هائلة، في محاولة اخراج العدو من الكهوف، في الصخور التي كانت تتدلى فوق نهر غويسوا. وأصبح ضروريا استعمال الحبال في إنزال الجنود، إلى تلك الكهوف. (ومن التجارب القاسية التي مر بها جنودنا، اضطرارهم لتحمل الرائحة النتنة، المنبعثة من الجثث، التي لا تقع تحت حصر). وفي الشق العميق الموجود بين أخولكو القديمة والجديدة، كان من الضروري، تبديل الجنود كل بضع ساعات. وقد تم إحصاء أكثر من ألف جثة، كما جرف النهر أعداداً كبيرة. وتم أسر (٩٠٠) شخص، معظمهم من النساء، والاطفال، والشيوخ، وحتى هؤلاء لم يمتنعوا عن ارتكاب أشد الاعمال بأساً. فكان بعضهم يستجمع آخر ماتبقى لديه من قوة، وينتزعون الحراب من الجنود الحرس، ويهاجمونهم بها، مفضلين الموت على ذل الاسر. وكانت هذه الانتفاضات من العنف مقابلة واضحة، للبطولة الرصينة التي أبداها المريدون. وقد اختتم المشهد المحزن ببكاء الاطفال ونواحهم، والمعاناة التي كان يعانيها المرضى، والجرحى)، وبحلول ٢٩ آب لم يبق جبلي واحد في أخولكو.

وقد دام الحصار ثمانين يوما، وكلف الروس (٢٥) ضابطاً و(٤٨٧) جنديا قتلى، و(٩١) ضابطا و(١٦٣١) جنديا جرحى، و(٣٣) ضابطا و(٦٦١) جنديا مصابين برضوض. وبلغ المجموع مايقارب الثلاثة آلاف، يضاف إليها الخسائر الباهظة بسبب المرض. وانتهى الحصار، وتمت فصول الرواية، وأسدل الستار،

ولكن ماالذي حصل للممثل الرئيسي، الذي لم يلعب دورا واضحا في المشهد الختامي، مما أثار استغراب النظّارة؟؟ ويمكن للمرء أن يتخيل الجهد الذي بذله الروس، وهم يقلبون الارض عاليها سافلها، بحثا عن عدوهم الاكبر شامل. لقد تم تفتيش كل كهف وزاوية، المرة بعد المرة. وتم تفحص كل جثة، ولكن لم يعثروا عليه حياً أو ميتاً، كما لم يتمكنوا من الحصول على أية معلومات من الناجين، تلقي ضوءاً على اختفائه، فهل قذف بنفسه من فوق الصخور، كما فعلت شقيقته فاطمة، وكثير غيرها؟ أو، مع أن الامر بدا بعيدا عن التصديق، هل تمكن أن يهرب بطريقة أكثر عجائبية من تلك التي هرب بها من غمري، قبل سنوات سبع؟ لم تعرف الحقيقة إلا بعد انقضاء عدة أيام، وحتى هذه الحقيقة لم تجد من يصدقها في البداية.

لقد ظهر أن شامل عندما رأى أنه خسر كل شيء، هرب في ليلة ٢١ آب مع زوجة وطفل- وقد ماتت زوجة أخرى له أثناء الحصار- يرافقه عدد من الاتباع المخلصين، والتجأ إلى أحد الكهوف في الصخور التي فوق نهر الغويسو. وفي الليلة التالية نزلت المجموعة الصغيرة إلى شاطىء النهر. وصنعت عوامة من بعض الاخشاب، وأطلقتها في النهر، وعليه بعض الاشباح، للفت انتباه الحراس الروس. ونجحت الحيلة. وشوهدت العوامة التي لم يكن عليها أحد، وانصب عليها وابل من النيران. وفي الوقت نفسه زحف الهاربون بحذر على طول الضفة، سائرين في اتجاه جريان الماء، حتى وصلوا إلى شعب ضيق. وهنا توغلوا في البر، ولكنهم وجدوا

في طريقهم بعض الحراس الروس. وتلا ذلك قتال وعراك، أصيب خلاله شامل، وطفله، الذي كان محمولا على ظهر أمه وقتل الضابط الروسي قائد الموقع، ولكنهم تمكنوا من اختراق جماعته، وتمكنت العصبة الصغيرة من الوصول، إلى الوادي الاعلى، وتسلقت الممر وهي في أسوأ حالاتها. ثم انحدرت نازلة عن سفح الجبل وبلغت ضفة النهر مرة أخرى عند نقطة فوق اتصال نهر العندي بنهر آفار غويسو، أي قريبا من جسر أشيلطا الذي سبق ذكره، وهنا تندفع الصخور الرملية العارية، على شكل لوحات ضخمة من الجانبين، بحيث تكاد تلتقي معا فوق المياه المزبدة. وأسرع هؤلاء الهاربون بمد لوح من الخشب فوق المسافة التي تفصل بين الصخور على الضفتين، وعبروا إلى الضفة اليسرى، ثم أخذوا يتسلقون سفح الجبل. ولم يمضوا بعيدا حتى انتبهت إليهم جماعة من غمري بقيادة ألوبك، كانت معينة لمراقبة الجسر. وأطلقت عليهم طلقات عديدة دون جدوى. أما شامل فقد عرف من هم فاستدار بمرارة وغضب إلى أبناء قريته الخونة، وهز قبضته في وجوههم صائحاً (سوف نلتقي ثانية يارجال غمرى) ثم تابع مع مرافقيه صاعداً الصخور واختفى عن الانظار.

الفصل السادس

شامل في بلاد الشيشان

شامل في بلاد الشيشان

الانتصار في أخولكو كان في نظر الروس هو الانتصار النهائي في حرب القوقاز حيث كتب الجنرال غراب إلى القيصر الكسندر الاول قائلاً:

«لقد هرب شامل من أخولكو يحمل معه الخزي والعار، ولقد تم تلقين أتباعه درساً قاسياً، وبالتالي فإن شامل فقد تماماً نفوذه وسطوته في الداغستان بل وأصبح طريداً في الجبال وهمه الوحيد هو الحصول على لقمة العيش والمحافظة على سلامته الشخصية. لقد تم القضاء ياسيدي الامبراطور على الحركة المريدية وجميع أتباعها ومن الآن فصاعداً فلن تكون هناك مقاومة لجنودك في القوقاز وبإمكاننا بناء القلاع والحصون متى نشاء وأين نشاء وبدون أية مقاومة أو أية معارضة وبدون أي قلاقل». (كتاب سيوف الجنة، ص ١٧٤).

«ممتاز» كان تعليق القيصر الكسندر الاول على تقرير الجنرال غراب حول معركة أخولكو والقضاء على آخر معاقل شامل في الداغستان وأمر القيصر بإقامة حفلة صاخبة في قصره الشتوي بسان بطرسبرج ابتهاجاً «بانتهاء حرب القوقاز» وتم دعوة «نخبة المجتمع الروسي» لهذه الحفلة والتي تم فيها توزيع أوسمة نصر خاصة أمر القيصر بصكها وصنعها خصيصاً بمناسبة الانتصار على شامل في أخولكو، وتلقى الضباط والجنود الروس الذين شاركوا في حملة أخولكو هذه الاوسمة بالبريد المستعجل.

أما بالنسبة لهروب شامل، فإن الامر لم يعن الروس كثيراً حيث اكتفوا برصد مكافأة قدرها ثلاثمائة روبل، وكانت تعادل في ذلك الوقت ثلاثين جنيهاً استرلينياً، وذلك لمن يقبض على شامل حياً أو ميتاً.

احتفال القيصر بانتهاء حرب القوقاز الاولى كان مبكراً وسابقاً لاوانه بعشرين سنة والمكافأة التي تم إعلانها مقابل «رأس شامل» لم تساوي شعره في رأس شامل، حيث إن مجرد نجاح شامل في الهرب، كان القشة التي قصمت ظهر القيصر لعشرين سنة قادمة وعلى أيدي الشيشان والذين أثبتوا لاحقاً بأنهم القلب النابض لشمال القوقاز. وطالما لم يتم إخضاع الشيشان فلن يكون هناك انتصار للقوات القيصرية في شمال القوقاز.

بالنسبة لشامل، فإن الهزيمة في أخولكو كانت مريرة وقاسية للغاية وذلك لسببين هما:

١- الهزيمة حدثت في بلدة الداغستان حيث شعبه وقومه، ليس هذا فحسب، بل إن معظم أمراء الداغستان انضموا للقوات القيصرية ضده وأرسلوا لقتاله خمسة آلاف مقاتل وزودوا الجنود الروس بالمؤن والذخائر وقاموا بأعمال الرصد والتجسس لحساب القوات القيصرية.

٢- فقد شامل في أخولكو إحدى زوجاته وأحد أبنائه وشقيقته كما أن ابنه البكر جمال الدين أصبح رهينة بأيدي الروس.

خسارة شامل في معركة أخولكو كان في الواقع موتاً سياسياً وعسكرياً له في الداغستان حيث خانه أمراء الداغستان بما فيهم أبناء

بلدته غمري، كما أن أتباعه تم القضاء على معظمهم بحيث لم ينج منهم في أخولكو سوى سبعة أتباع وبهذا الواقع الاليم الذي وجد شامل نفسه أمامه، فإن اليأس كان سيد الموقف في الكهف الجبلي الذي التجأ إليه شامل مع أفراد أسرته وأتباعه السبعة.

أين أذهب؟ تسائل شامل وهو جالس القرفصاء أمام نار صغيرة في مخبأه الجبلي حيث إنه إذا غامر بالظهور في الداغستان فإن أول قرية يظهر فيها سوف يسارع أهلها لاعتقاله وتسليمه للروس طمعاً في المكافأة.

كلا. إن الداغستان لم تعد بلده ولا أمان له بها وعليه أن يرحل إلى شعب آخر وبلاد أخرى يجد فيها العون والملجأ الذي يحميه وعائلته من بطش الروس. وهذا البلد يجب أن يكون شعبه ممن يحافظون على العهد والوفاء يسري في عروقهم جنباً إلى جنب مع دمائهم. وفجأة لمعت عيون الامام شامل واعتدل في جلسته فقد وجد الحل الذي سيعيد له اعتباره.

«سندخل مع الفجر إلى بلاد الشيشان» كانت الكلمات التي كسرت الصمت الطويل الذي ساد الكهف الذي التجأ إليه شامل مع عائلته وأتباعه السبعة.

لماذا الشيشان؟ سأل أتباعه.

هل نسيتم بأن مبايعة وجهاء الشيشان وعلى رأسهم تاشو- حاجا (الحاج تاشو) كان أهم أسباب قبول الناس بي إماما؟ إن الشيشان شعب يحافظون على العهد، شجعان لابعد الحدود، صبورين، عقلاء، والجرأة والبطولة فطرية لديهم ولكن عيبهم الوحيد أنهم لا

يتفقون على زعيم من بينهم، لانهم مجتمع لا يعترف بالامراء والزعماء والديمقراطية لديهم هي أساس التعايش بين القبائل والعشائر، وصدق من وصفهم بالقول بأنهم شعب من الامراء ليس لهم أمير.

وعيب الشيشان هذا، هو أملي في الزعامة لبلاد الشيشان لاني «غريب»، وهذا سيجعلني موضع إتفاق جميع الزعماء المحليين في بلاد الشيشان.

وبهذا «السيناريو» من الافكار والآمال والاحلام بدأ شامل وأتباعه رحلتهم إلى بلاد الشيشان صباح اليوم التالي.

الاحوال في بلاد الشيشان قبل وصول شامل

كما سبق وذكرنا، فإن بلاد الشيشان كانت من أولى مناطق شمال القوقاز التي هاجمتها القوات القيصرية في بداية «حملة القوقاز العسكرية» التي استهدفت احتلال منطقة القوقاز وكان لموقع بلاد الشيشان في قلب شمال القوقاز الدور الاكبر في توجيه القوات الروسية معظم قوتها الغازية نحو بلاد الشيشان. وكما سبق ذكره فإن يرملوف شخصياً تم اختياره لاخضاع الشيشان وكان لسياسة «الارض المحروقة» التي اتبعها يرملوف في حرب الشيشان الاثر الاكبر في تدمير معظم بلاد الشيشان وبشكل خاص شيشانيا السهلية أو شيشانيا الصغرى والتي تقع شرق نهر أرغون. ونظراً للقوة التدميرية الهائلة للمدفعية الروسية في المناطق السهلية، فقد أخلى الشيشان المناطق السهلية والتجأوا للجبال في شيشانيا الكبرى والتي تقع غرب نهر أرغون حيث يقل تأثير المدفعية الروسية نظراً للحماية الطبيعية التي توفرها الكهوف في الجبال وكذلك لصعوبة نقل المدافع الروسية عبر الجبال الوعرة في بلاد الشيشان.

كما أن القسوة البالغة التي تعامل بها يرملوف، ومن بعده الجنرالات الروس، مع الشعب الشيشاني كان له الاثر الكبير في ازدياد مشاعر الكره والبغض للروس بين الشيشان.

ونظراً لان الحركة المريدية في الداغستان كانت قد أصبحت العدو الرئيسي للروس في شمال القوقاز، فإن الشيشان وقد أذهلهم حجم التدمير الذي لحق ببيوتهم ومزارعهم وماشيتهم، قرروا

التريث في محاربة الروس الى حين أن يلتقطوا أنفاسهم ويعيدوا بناء ماهدمته المدفعية الروسية ويعيدوا زرع الحقول وتربية الماشية من جديد في المناطق الجبلية . في نفس الوقت ، فإن بعض المقاتلين الشيشان ذهبوا للداغستان وساندوا الحركة المريدية وكان على رأس هؤلاء تاشو- حاجا وأتباعه وكذلك جواد خان وشعيب وأتباعهم ولكن رجع هؤلاء إلى بلاد الشيشان بعد أن دب الخلاف بين شامل وأمراء الداغستان والذين انضموا للروس ضد شامل حيث إن من العادات السائدة في مناطق شمال القوقاز ، هو عدم التدخل عندما يدب النزاع بين العشائر والقبائل المحلية . وخلال سنوات الحرب في الداغستان ، فقد بقيت بلاد الشيشان هادئة تقريباً ولكن الاستعداد كان قائماً على قدم وساق في الجبال إستعداداً للجولة التالية مع القوات الروسية التي احتلت الاجزاء السهلية من بلاد الشيشان ولكن ماكان ينقص الشيشان لاعلان الثورة هو القائد المناسب والذي يقتنع به جميع زعماء القبائل والعشائر الشيشانية والصورة التي كانت للقائد المطلوب لقيادة الثورة هي صورة الامام منصور وهو الشيشاني الوحيد الذي التف حوله الشعب الشيشاني بل وسائر شعوب شمال القوقاز في الحرب ضد القوات القيصرية الغازية لشمال القوقاز . فيما يلي ملخص لسيرة الامام منصور والذي يعتبر أحد أبرز الشخصيات القيادية الاسلامية التي ظهرت في شمال القوقاز في القرن الثامن عشر .

الامام منصور

أول حملة عسكرية منظمة لاحتلال القوقاز قامت بها القوات القيصرية كان في عهد كاترينا الثانية في الربع الاخير من القرن الثامن عشر حيث قامت قوات الامبراطورة كاترينا أولا بطرد الاتراك العثمانيين من جورجيا وأبخازيا وشبه جزيرة القرم والتي تعتبر حلقة الاتصال البرية الوحيدة بين تركيا والاجزاء الغربية من شمال القوقاز، كما قامت قوات كاترينا بمحاصرة ميناء أنابا البحري على ساحل البحر الاسود والذي يعتبر حلقة الوصل البحرية لتركيا مع منطقة القوقاز.

نجاح الامبراطورة كاترينا ضد الاتراك العثمانيين أغراها بمحاولة ضم شمال القوقاز لنفوذها فأوعزت لقائد جيوشها الكونت بوتمكين بإرسال حملة عسكرية لاخضاع شمال القوقاز ولكن جيوش كاترينا التي وصلت بلاد الشيشان عام ١٧٨٥م منيت بهزائم ساحقة على يد قوات الامام منصور أو أشورما كما لقبه الروس فيما بعد وكان الامام منصور زعيماً دينياً في بلاد الشيشان وهو من قرية ألدي الشيشانية ودرس العلوم الدينية في الداغستان وعاد لبلاد الشيشان ليبدأ في الدعوة للتمسك بالشريعة الاسلامية والزهد في الدنيا وترك مباهجها وكانت العلوم الدينية التي تلقاها الامام منصور على أيدي أساتذته في الداغستان من ضمن مبادىء الطريقة النقشبندية التي كانت منتشرة في الداغستان في ذلك الوقت. وعندما سمع الامام منصور بتحرك القوات الروسية نحو بلاد الداغستان والشيشان والقبرطاي

والانجوش لاحتلالها، فقد خرج يدعو هذه الشعوب «للجهاد» ضد القوات الروسية الغازية ولقيت دعوته تجاوباً كبيراً من السكان والتف حوله مقاتلون من جميع شعوب شمال القوقاز واستطاع الامام منصور بهذه القوات من دحر جميع الهجمات الروسية ضد شعوب شمال القوقاز وطوال ست سنوات من القتال المتواصل، لم تستطع القوات الروسية هزيمة الامام منصور وقواته وبالتالي فقد بقيت شمال القوقاز منيعة على قوات كاترينا.

وفي عام ١٧٩١م وعندما كانت القوات الروسية تحاصر ميناء أنابا التركي وعلى وشك اقتحامه أرسل الخليفة العثماني للامام منصور رسالة يطلب منه فيها «نجدة» الاتراك المحاصرين في أنابا ولبى الامام منصور النداء وسار بقسم من قواته لنجدة الاتراك وهاجم القوات الروسية من الخلف واستطاع فك الحصار عن أنابا مما سمح للاتراك المحاصرين باستقبال نجدة عسكرية بقيادة عسكر بطال باشا ودخلت هذه القوات ميناء أنابا ومعها قوات الامام منصور وعندما هاجم الروس ميناء أنابا مرة أخرى تمكن المدافعون من احتواء هذه الهجمات وصدّها. وبعد أن رفع الروس الحصار، فقد أساء القائد التركي عسكر بطال باشا معاملة الامام منصور وأتباعه بسبب شعبية الامام منصور الجارفة بين شعوب شمال القوقاز بما فيهم الشراكسة والذين كانت تعتبرهم من رعاياها، مما أثار غيرة القائد التركي والذي أعماه الحسد عن الاعتراف بفضل الامام ومساعدته للاتراك في الدفاع عن أنابا.

وغادر الامام منصور أنابا عائداً لبلاد الشيشان وأرسل من هناك

شكوى إلى الخليفة العثماني ضد القائد التركي عسكر بطال باشا .

بعد مغادرة الامام منصور أنابا ، عاد الروس ثانية وبقوات جديدة لمهاجمة أنابا وحصارها وللمرة الثانية أرسل الخليفة العثماني إلى الامام منصور يطلب منه فيها العون ضد القوات الروسية وفي نفس الوقت أرسل الخليفة العثماني «لجنة تحقيق» مع عسكر بطال باشا برئاسة الجلاد الخاص للخليفة . وقد لبى الامام منصور نداء الخليفة وعاد لانابا رغم حنق وغيظ عسكر بطال باشا والذي عندما سمع بأن هناك لجنة تحقيق قادمة لمحاسبته على معاملته السيئة للامام منصور ، قام سراً بمغادرة الميناء مع أتباعه حاملاً معه جميع الاموال التي كان الخليفة العثماني قد أرسلها لدعم صمود أنابا أمام الحصار الروسي وذهب بهذه الاموال الى القوات الروسية حيث انضم لهم مع أتباعه . وكان لخيانة عسكر بطال باشا هذه أثراً كبيراً في كسر معنوية القوات التركية التي بقيت داخل قلعة أنابا رغم محاولات الامام منصور اليائسة لرفعها ، وبعد دفاع استمر لمدة أسابيع قرر قائد الحامية التركية الاستسلام للروس رغم احتجاج ومعارضة الامام منصور . وعندما فتحت أبواب القلعة واندفع آلاف الجنود الروس لداخل القلعة فإن المقاومة الوحيدة التي لقيها الجنود الروس كانت من الامام منصور وقواته والتي قاتلت لآخر رجل . أما الامام منصور فقد تمكن الروس من أسره بعد أن أصيب بجراح بليغة وسقط سيفه أثناء القتال . وقد أرسل الامام منصور لبلاط الامبراطورة كاترينا مكبلاً بالاغلال وذلك بناء على طلب كاترينا والتي بعد أن نظرت إلية وهو مقيد بالسلاسل الحديدية ، أمرت بسجنه في جزيرة نائية .

بعد سقوط أنابا عقدت اتفاقية بين الروس والعثمانيين لتبادل الاسرى وطلب الاتراك إعادة الامام منصور مع بقية الاسرى الاتراك وكان رد الروس بالموافقة على رد الاسرى الاتراك ولكن ليس الامام منصور وذلك باعتبار الامام منصور «شيشانيا» وليس مواطنا عثمانيا كما اتهم الروس الامام منصور بأنه «قاطع طريق وخارج عن القانون الروسي».

وفي عام ١٧٩٤م قتل الامام منصور في سجنه خنقاً بعد ان قام باختطاف خنجر من حراسه وطعن أحدهم وأصابه بجراح بليغة واجتمع عليه حراس السجن وقاموا بخنقه وهكذا انتهت حياة أول وآخر زعيم إسلامي التفت حوله شعوب شمال القوقاز بدون استثناء في القرنين الثامن والتاسع عشر. (من كتاب الامام منصور: الامام الاول للشيشان».

استقبال الشيشان للإمام شامل

بعد هزيمة شامل في أخولكو فإن المنطقة الوحيدة من شمال القوقاز والتي لم تكن قد خضعت تماماً للسيطرة الروسية كانت الاجزاء الجبلية من بلاد الشيشان ولهذا وبعد أن أعتبرت القوات الروسية موضوع الداغستان منتهياً بعد سقوط أخولكو، فإن معظم قواته أصبحت جاهزة للعمل في بلاد الشيشان.

وقد أسندت حكومة القيصر الكسندر الاول مهمة إخضاع الشيشان للحكم الروسي بشكل نهائي للجنرال بوللو والذي اختار استخدام «سياسة الارض المحروقة» التي تبعها يرملوف في إخضاع الشيشان وقام الجنرال بوللو بمهاجمة الشيشان في قراهم الجبلية بالمدافع الثقيلة ودك البيوت والمزارع والحقول بالقذائف الحارقة كما قام بإنشاء مايسمى بالسانيستا وهي تجمعات سكنية على شكل قلاع وحصون يقطنها الكوزاك والذين كانوا يشكلون طليعة القوات الروسية في شمال القوقاز، وكما سبق ذكره فإن قوات الكوزاك هم شعوب مسيحية معروف عنها الشجاعة والمهارة في أعمال الرصد والتجسس وكانت من أوائل شعوب جنوب روسيا التي تم اخضاعها للحكم الروسي منذ أيام بطرس الاكبر وكاترينا الثانية ومنذ ذلك الوقت كان الكوزاك هم العمود الفقري للجيش الروسي في شمال القوقاز.

إقامة القلاع والحصون التي يسكنها الكوزاك في بلاد الشيشان والقصف المدفعي المكثف باستمرار للقرى الشيشانية لم يزد

الشيشان سوى إصراراً على المقاومة والتحدي ولكن كانت هناك حاجة لقائد ينال موافقة جميع زعماء الشيشان المحليين وبالتالي فإن قدوم شامل لبلاد الشيشان طالباً النصرة والعون كان كل مايحتاجه الشيشان لاعلان الحرب الشاملة على القوات الروسية حيث ان القتال المنفرد للقبائل الشيشانية ضد القوات الروسية لم يكن مؤثراً بالدرجة المطلوبة حيث إن قوة الشيشان، أو أي شعب آخر، هو بالوحدة والعمل بشكل جماعي.

ثـورة الشيشان

عند وصـول بوللو بقـواته الى الشـيشانيـة فقـد تظاهر الشـيشان بالخضوع وقبلوا شروط الجنرال بوللو للاستسلام وسلموا لقواته الخارجين عن القانون وبعض الاسرى الروس الذين كانوا بأيديهم وكذلك الجنود الروس الفارين من الخدمة والذين التجأوا للشيشان . هذا الخضوع الغريب للشيشان للحكم الروسي زاد من غرور الجنرال بوللو والذي قام بتعيين نواب له على القبائل الشيشانية من الشيشان الذين تعاونوا معه ضد بني قومهم وهؤلاء بدورهم حذو حذو قائدهم وساموا الشيشان الظلم وعاملوهم بشراسة مما زاد من حنق الشيشان ونفذ صبرهم وانتشر التذمر في سائر أنحاء البلاد خصوصاً بعد انتشار شائعات مفادها بأن جميع الشيشان سوف يُجردون من السلاح ويُحولون إلى فلاحين على نمط ستانسات الكوزاك وتُفرض عليهم الخدمة العسكرية في الجيش الروسي القيصري .

وفي ظل هذا التذمر والسخط السائد بين الشيشان ظهر شامل بينهم وكان مجرد ظهور القائد الذي سيقودهم ضد الروس هو كل ماا حتاجه الشيشان ليعلنوا الثورة والتي ابتدأت في منتصف أذار عام ١٨٤٠م وامتدت لتشمل ليس بلاد الشيشان فحسب بل وأجزاء من الداغستان واتخذت الثورة شكل حرب العصابات حيث أخذت قوات شامل تهاجم مستوطنات الكوزاك والقلاع والحاميات الروسية وكانت هجمات قوات شامل تتم بسرعة مذهلة وفي أماكن مختلفة

تبعد عن بعضها البعض بين ٧٠ إلى ٨٠ ميل مما أبقى القوات القيصرية في الشيشان والداغستان في حالة استنفار دائم حيث إن شامل لم يكتف بانتصاراته في بلاد الشيشان بل مد نطاق عملياته إلى الداغستان حيث انضم الآلاف من أتباع المريدية السابقين إلية من جديد.

وقد شجعت انتصاراته شامل في الشيشان والداغستان السريعة على القلاع والحاميات الروسية التي أقيمت فيهما على قيام شراكسة البحر الاسود بالثورة على الروس وهاجموا بدورهم الحاميات الروسية على سواحل البحر الاسود حيث تمت إبادة كثير من حاميات هذه القلاع.

أما الروس، فقد أذهلتهم مفاجأة ظهور شامل بين الشيشان ونجاحه في زعامتهم في ثورتهم على حكمهم وعندما وردت أنباء ثورة الشيشان بزعامة شامل إلى بلاط القيصر، إحتدّ القيصر وقال بغضب: «هذا الرجل المشاغب شامل ظهر لنا من جديد». وأمر بإرسال تعزيزات فورية إلى الشيشان والداغستان ووضعت قوات القوقاز تحت إمرة الجنرال جولوفين.

واستمرت المعارك سجالاً بين شامل وأتباعه من جهة وبين القوات القيصرية في الشيشان والداغستان من جهة أخرى ودمرت المدفعية الروسية معظم بلاد الشيشان السهلية من جديد إلا أن الشيشان ازدادوا عناداً وقاموا بغارات ناجحة على الحاميات الروسية وأوقعوا بها خسائر فادحة.

أما في الداغستان، فقد أصيب الروس بنكسة كبيرة حين قام

الحاج مراد أحد أعوانهم السابقين بالانضمام إلى شامل رغم العداوة القديمة بين الاثنين وكان حاكم أفاريا أحمد خان مختولي والذي عينه الروس بهذا المنصب قد أوقع بين الحاج مراد والروس حيث اتهمه بالاتصال سراً بشامل فقام الروس ودون أن يتحروا الحقيقة باعتقال الحاج مراد ونقله إلى السجن في منطقة شورا البعيدة عن إقليم أفاريا موطن الحاج مراد والذي كان أحد الزعماء المحليين المعروفين في أفاريا ومن أشجع الفرسان في الداغستان.

وقد هرب الحاج مراد أثناء نقله للسجن ليظهر بعد مدة في الداغستان وسط أتباعه وأعلن انضمامه لشامل والذي قام بتعيينه نائباً له في الداغستان.

وفور ورود الانباء للروس قاموا بارسال حملة قوامها ألفين من الجنود لمهاجمة الحاج مراد في قريته وكانت القوة الروسية بقيادة الجنرال باكونين قائد المدفعية الامبراطورية الروسية وهاجمت هذه القوة قرية تسلميس مقر الحاج مراد لكن أتباع الحاج مراد تمكنوا من صد الهجوم وقتل الجنرال باكونين في المعركة وخسرت القوات الروسية ثلث قواتها قبل أن تنسحب مسرعة إلى قواعدها.

أما الحاج مراد فقد فقد أباه وأخاه في المعركة كما أصيب هو نفسه بالجراح.

وطوال عام ١٨٤١م فقد استمرت الحرب بين الروس وقوات شامل في الشيشان والداغستان ولكن بدون تفوق طرف على آخر ولكن الروس خسروا كثيراً من المواقع والحاميات في شيشانيا والداغستان.

حملة دارغو الاولى عام ١٨٤٢م:

بعد استلام شامل زعامة الشيشان فقد قام باختيار مدينة فيدن في الجزء الغربي في بلاد الشيشان كعاصمة له وقام بتسميتها فيدن- دارغو نسبة إلى قرية غمري مسقط رأس شامل والامام غازي محمد حيث بدأت الحركة المريدية وكانت غمري هي دارغو شامل في الداغستان. ومدينة فيدن الشيشانية تقع في إقليم اشكيريا المحاذي للداغستان وتتميز بكثافة الغابات حولها وبموقعها الحصين فوق الجبال.

وبسبب الغارات المتلاحقة والمستمرة دون هواده والتي كانت تنطلق من دارغو ضد الحاميات الروسية في شيشانيا والداغستان، فقد قرر الروس احتلال عاصمة شامل فيدن- دارغو وتوجيه ضربة عسكرية ومعنوية له واختاروا للحملة الجنرال غراب وهو نفس الجنرال الذي هزم شامل في أخولكو عام ١٨٣٩م. وقد استغل غراب فرصة غياب شامل عن دارغو نظراً لمعرفته من خلال جواسيسه بأن شامل خرج بمعظم قواته لمهاجمة إمارة غازي- قمق في جنوب غرب الداغستان، وحشد جيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل ومعهم أربعة وعشرون مدفعاً وسار بهذه القوة من قرية غير زيل على بعد ستين كيلو متراً من دارغو وانطلق مسرعاً لمهاجمة عاصمة شامل في بلاد الشيشان والتي كان شامل قد أوكل مهمة حمايتها والدفاع عنها في غيابه ضد أي هجوم روسي محتمل، إلى نائبه شعيب والذي كان تحت امرته ألفين من المقاتلين فقط.

وعندما بلغت أخبار تحرك الجنرال غراب نحو دارغو إلى

شعيب، فقد قام بتوزيع مقاتليه على طول الطريق المؤدية إلى دارغو وعلى قمم الاشجار الضخمة في الغابات المحيطة بدارغو.

وقد انتهت حملة دارغو بعد أربعة أيام فقط من ابتدائها وقبل وصول قوات غراب إلى دارغو حيث تمكنت قوات شعيب من قتل ١٧٠٠ جندي ومعهم ٦٦ ضابطاً وغنموا جميع التموينات والتجهيزات التي كانت مع قوات غراب وذلك في معارك استنزاف وهجمات مباغتة أثناء سير قوات غراب في الغابات المؤدية إلى دارغو.

هذه الخسائر الباهظة التي منيت بها قوات الجنرال غراب رغم أنها كانت لا تزال في منتصف الطريق إلى دارغو، جعلت استمرار الحملة مستحيلاً فأصدار غراب أوامره بالانسحاب والتراجع إلى نقطة انطلاق الحملة في غير زيل.

ولم يستوعب غراب درس دارغو، فقام بعد وقت قصير بحملة جديدة ولكن هذه المرة في الداغستان وذلك لاحتلال قرية إيفالي لكن حملته هذه أيضا فشلت وخسر الروس نحو ثلاثمائة جندي وضابط في هذه الحملة السريعة ضد قرية إيفالي الصغيرة والتي لم يكن يزيد عدد المدافعين عنها عن ثلاثمائة مقاتل.

وخلال السنوات ١٨٣٩ - ١٨٤٢م خسر الروس في المعارك مع قوات شامل في الشيشان والداغستان مامجموعه عشرة آلاف جندي وضابط بين قتيل وجريح.

ونظراً لضخامة هذه الخسائر فقد تم عزل غراب وحل مكانه الجنرال نيدهارت الالماني الاصل والذي كان في خدمة القيصر.

أما سنة ١٨٤٣م فقد كانت سنة كوارث للروس في الشيشان والداغستان حيث فقدوا مزيداً من القلاع والحصون كما ثارت ضدهم مقاطعات تبارسان وكايتاغو على سواحل بحر قزوين وكذلك المناطق الجنوبية في الداغستان والتي كانت موالية للروس مثل إمارة غازي قمق وثار أيضا في الشمال قبائل الكموك الذين كانوا يقطنون السهول المحاذية لنهر التيرك في الجانب الروسي كما أبدي القبارطاي إلى الغرب من الشيشان علامات السخط والتذمر ضد الحكم الروسي .

ولم يكن عام ١٨٤٤م بأفضل من سابقه بالنسبة للروس رغم نجاح الروس في استعادة أوكوشا وإمارة غازي قمق ولكنهم بالمقابل خسروا ولاء أحد الموالين لهم في جنوب الداغستان وهو دانيال بك والذي كان يحكم إمارة إليسو بلقب سلطان اليسو وكان نفوذه يسري على معظم جنوب الداغستان والذي أصبح بعد انضمام دانيال بك إلى شامل تحت سيطرة قوات شامل .

حملة دارغو الثانية:

بعد فشل الجنرال نيدهارت في تهدئة الاوضاع في الشيشان والداغستان فقد تم عزله وحل مكانه الكونت فورنستوف والذ ي كان أحد القادة اللامعين في حرب روسيا مع نابليون عندما كان شاباً كما كان فورنتسوف ينحدر من أسرة ارستقراطية . وجاء تعيين فورنتسوف ليتولى مهمة القضاء على شامل في عرينه وسحق قواته في الشيشان والداغستان ولتحقيق رغبات القيصر هذه تم تعزيز

القوات الروسية العاملة في الشيشان والداغستان كما تم توحيد هذه القوات تحت إمرة فورنتسوف .

وفور وصول فورنتسوف إلى مسرح العمليات، قام بالاجتماع مع أركان حربه ومن ضمنهم الجنرال فريتاغ والامير ارغوتنسكي-دولغوركوف وكان الاثنان من ألمع قادة الروس في جبهة القوقاز ويمتلكان خبرة طويلة في الحرب ضد الشيشان والداغستان عندما أخبرهما فورنتسوف بعزمه على مهاجمة شامل في عاصمته دارغو بناء على تعليمات الامبراطور الشخصية، اعترض الاثنان على هذا الهجوم وقال الجنرال فريتاغ لفورنتسوف :

«الشيشان سيعلمون بقدومك منذ أن تتحرك من هنا نحو دارغو ويأخذوا حذرهم واستعدادهم واذا سرت إليهم في عاصمتهم فستجد الشيشان قوماً يعرفون كيف يحاربون» .

ورغم هذه التحذيرات، فقد أصر فورنتسوف على مهاجمة دارغو وحشد لهذه المهمة جيشاً كبيراً يزيد عن عشرين ألف جندي وضابط وجنرال بينهم باسك وكلوجنا وولودرز إضافة لافراد من أسرة رمانوف الامبراطورية ومن بينهم الامير الكنسدر اوف هيس دارقشتارت والامير وتجنشستين وأيضاً أمير وارسو إضافة لمجموعة من أبناء الاسر الارستقراطية الروسية العريقة . وإضافة لهذا الجيش الكبير من المقاتلين النظاميين الروس، فقد كان ضمن الحملة مايزيد على ألف مقاتل من الميليشيا الوطنية التي كانت موالية للروس والحرس الشخصي لفورنتسوف والمؤلف معظمه من الفرسان الاكراد بلباسهم المزركش المميز كما حل جيش فورنتسوف معه

أربعون مدفعاً وحاشية كبيرة من الخدم والطهاة لخدمة أبناء العائلات الارستقراطية الروسية في جيشه.

وفي اليوم التالي لتحرك الجيش سرق أحد الوطنيين العاملين في خدمة فورنتسوف حصانه المفضل وهرب على متنه نحو دارغو لينذر شامل بتحرك هذا الجيش الضخم نحوه للقضاء عليه في عاصمته.

وعندما وصل الخبر إلى شامل فإنه تدارس الوضع مع نوابه وتقرر عدم مواجهة الروس في معركة مكشوفة بسبب امتلاك الروس للمدافع الكثيرة والتي كانت دائماً سلاح الروس الفتاك ضد فرسان شامل عندما تتم المواجهات في سهول مكشوفة، وعليه فقد تقرر أن تكون المعركة الرئيسية مع الروس أثناء انسحاب الروس بعد وصولهم لدارغو.

وقام شامل بتوزيع معظم قواته في الغابات المحيطة بدارغو وأبقى قوة صغيرة داخل القرية للدفاع عنها.

وعندما وصلت قوات فورنتسوف لدارغو وثبات هجومها فإن المدافعين داخل القرية ورغم قلة عددهم أبدوا مقاومة شرسة وأوقعوا خسائر فادحة بالروس قبل أن ينسحبوا للغابات.

وتم الاستيلاء على عاصمة شامل وتم حرقها وإلى هذا الوقت فإن فورنتسوف كان مسروراً بنتائج الحملة ولكن رحلة العودة الى فنيزابنايا حيث مقر قيادته الرئيسية التي انطلق منها والتي تبعد عن دارغو ٤٥ كيلو متراً، تحولت إلى كابوس مرعب يفوق كثيراً ما لقيه الجنرال غراب في حملته على دارغو عام ١٨٤٢م حيث تحولت الطريق الى جبهة قتال واسعة وظهرت قوات شامل الرئيسية في

الغابات لتهاجم القوات الروسية من كل جانب ومن خلف الاشجار الضخمة وانهمر رصاص القنص على الجنود الروس ليل نهار واستخدم الشيشان هجمات الكر والفر الخاطفة على القوات الروسية وكذلك اسلوب قطع الوحدات الامامية عن الخلفية ثم ابادتها وهلمّ جرا.

واستمرت المعركة على هذا المنوال ستة أيام متواصلة وانتهت بوصول نجدة كبيرة إلى فورنتسوف المحاصر في الغابات بعد أن نجح الفرسان الخمسة الذين أرسلهم فورنتسوف لطلب النجدة من فريتاغ بالوصول الى غروزني حيث كان يقيم فريتاغ والذي تحرك على الفور لنجدة فورنتسوف على رأس قوة كبيرة.

على أي حال الخسائر التي مني بها جيش فورنتسوف كانت باهظة للغاية حيث انه من أصل جيشه الكبير والذي زاد عن عشرين ألفاً فإن الذين وصلوا سالمين إلى قاعدة الانطلاق لم يزد عن خمسة آلاف كما تم إبادة حرس فورنتسوف من الاكراد ولعل أكبر خسائر الروس في هذه الحملة كان مقتل ثلاثة جنرالات ومائة وخمسة وتسعون ضابطاً وكان الجنرال باسيك وهو ألمع جنرالات القيصر في القوقاز وأشجعهم ضمن القتلى.

وهكذا انتهت حملة دارغو الثانية عام ١٨٤٥م بهزيمة ساحقة للروس.

شامل يغزو القبارطاي

بعد أن فشلت حملة دارغو الثانية عام ١٨٤٥م بقيادة الكونت فورنتسوف ضد شامل في بلاد الشيشان فقد بقي الموقف العسكري في صالح شامل واكتفى الروس خلال عام ١٨٤٦م بمراقبة تحركات شامل وذلك بانتظار تعزيز قواتهم في القوقاز بالجنود والمدفعية وانهمك الروس في تقوية حصونهم وقلاعهم وبناء تحصينات جديدة وشق طرق وغيرها من أعمال هندسة الميدان.

أما شامل، فقد استغل توقف الروس عن الاعمال العسكرية بتنظيم حملة عسكرية ضد شراكسة القبرطاي والذي وقعت بلادهم فريسة للحكم الروسي منذ عام ١٨٢٢م وتقع بلاد القبارطاي بين شرق وغرب القوقاز وبموقعها الاستراتيجي هذا فإنها كانت تتحكم في طريق الامدادات العسكرية الروسية التي كانت تأتي للقوقاز وبالتحديد لبلاد الشيشان والداغستان سواء من الشمال أي من روسيا القيصرية أو من الجنوب، أي جورجيا والتي كانت تخضع للحكم الروسي منذ عام ١٨٠٠م.

وعلاقة شامل بالشراكسة كانت ودية ويتبادل المعلومات معهم بشكل دائم، إلا أن تنسيق العمليات العسكرية معهم كان معدوماً حيث كان الشراكسة منقسمين إلى اثني عشر مركزاً قوياً أو إمارة منفصلة وتمتد بلادهم من القبارطاي شرقاً حتى بلاد الاديغة على ساحل البحر الاسود غرباً في نفس الوقت، فإن الشراكسة رفضوا الخضوع لشامل لانهم لم يريدوا أن يكونوا تحت حكم المريدين

المتعصبين وخاضوا حربهم الخاصة ضد الروس وتعاونهم مع الاتراك كان أكثر رغم أن الاتراك كانوا قد طردوا تماماً من غرب القوقاز منذ عام ١٨٢٨م حين سقط ميناء أنابا العسكري على ساحل البحر الاسود بيد القياصر وتنازل عنه الاتراك للروس بموجب معاهدة أدرنه. ومنذ ذلك الوقت، فقد الاتراك نفوذهم في شمال غرب القوقاز من الناحية الفعلية باستثناء قيامهم بارسال رسائل تحريض للشراكسة على الثورة ضد الحكم الروسي ولكن دون مساعدة وكان الشراكسة يدفعون الثمن غالياً في كل انتفاضة يقومون بها ضد القياصرة كما حدث عام ١٨٤٠م عندما حطموا التحصينات الروسية على سواحل البحر الاسود وأشغلوا قسماً كبيراً من القوات الروسية مما ساعد شامل على استرداد أنفاسه بعد هزيمته في أخولكو عم ١٨٣٩م وخفف الضغط عنه عندما قام عام ١٨٤٠م بإعلان الثورة من جديد في بلاد الشيشان حيث تفرغت كثيراً من القوات القيصرية لقمع الشراكسة على ساحل البحر الاسود نظراً لخطورة موقع الشراكسة على ساحل البحر الاسود لقربهم من الاتراك وبالتالي بريطانيا والتي كانت في حلف مع الاتراك ضد أطماع روسيا القيصرية في بلاد الهند.

وقد سبقت حملة شامل على القبارطاي اتصالات سرية مع بعض زعماء القبارطاي والذين كانوا قد أظهروا مشاعر البغض والتذمر من الحكم الروسي وأبدوا استعدادهم لمساعدة شامل في تحرير القبارطاي من الحكم الروسي. في نفس الوقت فإن قسماً آخر من زعماء القبارطاي، رفض التعاون مع شامل وفضلوا البقاء تحت الحكم الروسي.

إضافة للشراكسة القبارطاي، فقد أرسل شامل إلى شراكسة البلغار والقرشاي غرب القوقاز، رسلاً يبلغونهم بقدومه وطالباً تعاونهم.

وجهز شامل جيشاً قوامه أربعة عشر ألف مقاتل وانطلق لغزو القبارطاي وكانت مراحل خطة شامل تتلخص في السيطرة على ممر داريال الشهير والذي يتحكم في بلاد الانجوش والاستين (جمهورية انجوشيا وأوسيتيا الشمالية) ويعزلها عن روسيا القيصرية من الشمال وعن جورجيا من الجنوب وبالتالي فإن جورجيا نفسها وكذلك الاوستين حلفاء الروس في القوقاز، كان سيتم عزلها أيضاً عن روسيا القيصرية ويسهل ضربهم واخضاعهم لحكم شامل وبعد احتلال ممر داريال، فقد كانت خطة شامل تقوم على عبور نهر التيرك الذي يقطع بلاد القبارطاي الكبرى والصغرى وبالتالي يستطيع استراتيجيا التأثير على قبائل البلغار والقرشاي في غرب القوقاز.

وتقدم شامل بقواته نحو القبارطاي وقطع نهر أرغون ونهر سونجا وأرسل نائبه نور علي لاحتلال ممر داريال.

غير ان حملة شامل هذه على القبارطاي فشلت وذلك للاسباب التالية:

١ - تنبه الجنرال فريتاغ الى خطة شامل وكان فريتاغ الالماني الاصل من أذكى جنرالات القيصر العاملين في القوقاز وصاحب خبرة طويلة في الحرب في القوقاز. وعندما بدأ شامل حملته على القبارطاي كان فريتاغ قد تلقى أمراً من القيصر بسحب الفيلق الخامس من جيش القوقاز القيصري والذي كان يرأسه من القوقاز

الى الحدود الروسية مع القوقاز وذلك لإعادة تجهيزه بالرجال والمدفعية. كما ان فريتاغ أدرك خطورة نجاح شامل في غزو القبارطاي من الناحية العسكرية وقام بمبادلاة فردية بتعقيب شامل الفيلق الخامس بدل سحبه للشمال كما أمر القيصر. في نفس الوقت، فقد أرسل فريتاغ قوة عسكرية لحماية ممر داريال وتمكنت هذه القوة بمساعدة قبائل الاوستين والانجوش من منع نائب شامل من احتلال هذا الممر الاستراتيجي وبالتالي بقى طريق الامدادات العسكرية للروس مفتوحاً باتجاه القوقاز.

٢- مطاردة فريتاغ لشامل عززت موقف زعماء القبارطاي المتعاونين مع الروس والذين نجحوا في إقناع الزعماء الذين كانوا على استعداد للانضمام لشامل بالعدول عن رأيهم وعدم الثورة على الروس وذلك تحاشياً لانتقام الروس اللاحق منهم، ونظراً لخلفية الروس بين القبارطاي في الوحشية والقسوة في الانتقام، كما حدث لشراكسة البحر الاسود بعد ثورتهم عام ١٨٤٠م، فقد تراجع هؤلاء الزعماء عن تأييد شامل ورفضوا الانضمام لقواته وبدون الشراكسة فإن شامل كان يدرك بأنه لن يستطيع هزيمة الروس في القبارطاي وبالتالي قرر شامل العودة بسرعة إلى بلاد الشيشان قبل أن تصل التعزيزات الروسية التى علم شامل بأن القيصر أمر بإرسالها لدعم قوات فريتاغ التي كانت تطارد شامل. كما أن فشل نائب شامل نور علي في احتلال ممر داريال كان سبباً آخر في قرار شامل بالانسحاب إلى بلاد الشيشان والتخلي عن مخططه بغزو واحتلال بلاد القبارطاي.

٣- لسبب غير معروف، ورغم انتقاد النواب الشيشان الذين كانوا مع شامل في حملته على القبارطاي فقد تجنب شامل الدخول في معركة حاسمة مع الجنرال فريتاغ رغم أنه في أحد مراحل مطاردة فريتاغ لشامل التقى الجيشان على خطوط تماس قريبة وكانت قوات شامل من حيث العدد تفوق قوات فريتاغ بنسبة ٥ر٢ إلى ١ وكان بإمكان قوات شامل إلحاق هزيمة قاسية بقوات فريتاغ لو قبل شامل نصائح نوابه الشيشان وقرر مهاجمة فريتاغ. وكانت هزيمة فريتاغ ستكلل خطة شامل بغزو القبارطاي بالنجاح التام لانها كانت القوات الروسية الرئيسية الوحيدة في المنطقة والقضاء عليها كان حتماً سيمكن شامل من احتلال ممر داريال وربما كان زعماء القبارطاي الذين تراجعوا عن الانضمام إليه خوفاً من انتقام فريتاغ قد بقوا على موقف التأييد له.

وهكذا انتهت حملة شامل على القبارطاي والتي استمرت حوالي الشهر (أبريل ١٨٤٦م) وكانت الحملة فاشلة عسكرياً كما أنها أدت إلى بداية مشاعر التذمر بين الشيشان من قيادة شامل العسكرية لهم.

شامل في أوج قوته

رغم فشل حملة القبارطاي في تحقيق أهدافها، إلا أن سمعة شامل زادت بين القبائل وارتفعت روحه المعنوية نظراً لجرأة محاولة احتلال القبارطاي ونظراً لقيام قوات شامل لاحقاً بمهاجمة غروزني وفوزرفجنسكوي واللتان كانتا من أقوى معاقل الروس في بلاد الشيشان. ورغم أن شامل لم يستطع احتلال الحصنين، إلا أن مجرد الهجوم على هذين المعقلين وتكبيد المدافعين عنهما خسائر باهظة، كان بحد ذاته نصراً لشامل.

أما في الداغستان، فقد قام الحاج مراد بسلسلة من الغارات الناجحة على مواقع القوات الروسية والمتعاونين معهم من الامراء المحليين ومن ضمنهم عدوه القديم أحمد خان مختولي والذي قتله الحاج مراد واختطف أرملته أمام أعين القوات الروسية.

وفي بداية عام ١٨٤٧م شرع الروس في بناء الحصون وشق الطرق وتعزيز قواتهم في القوقاز لكن في بداية النصف الثاني من العام بدأ الجيش الروسي بأخذ زمام المبادرة من جديد في الهجوم وجهزوا جيشاً ضخماً لمهاجمة قرية غرغبيل وكانت غرغبيل إحدى معاقل شامل القوية في الداغستان وعندما علم شامل بنية الروس هذه فقد قام بالتحرك مسرعاً نحو غرغبيل ليشرف بنفسه على دحر القوات الروسية.

وصول شامل لارض المعركة رفع كثيراً من معنوية المقاتلين

المدافعين عن القرية وصمموا على دحر الهجوم الروسي والذي ضم نخبة الجنرالات والضباط الروس، مهما كلفهم ذلك وأقسموا إيماناً مغلظة على القرآن أن يموتوا أو يهزموا الروس.

«وفي السادسة من صباح اليوم الرابع من حزيران ١٨٤٧م فتحت المدفعية الروسية نيرانها على بيوت القرية وأحدثت ثغرة كبيرة في السور الخارجي للقرية وانطلق رتل من القوات الروسية بقيادة الجنرال يغدوكيموف بهجوم تضليلي لاجتذاب جزء من المدافعين عن نقطة الهجوم الحقيقية. أما رتل الاقتحام فكان بقيادة الامير أوربلياني ويتألف من الكتيبة الاولى من فوج أبشرون وكتيبة من فوج أمير وارسو باسكيفيتش مزودين بالسلالم ورجال الالغام الهندسية وكان على هذا الرتل الاتجاه مباشرة نحو الثغرة والتي ركزت عليها المدفعية الروسية لتوسيعها. في نفس الوقت، فقد وضعت كتيبة أخرى من فوج أمير وارسو وكتيبة ثانية من فوج السامور في الاحتياط كما كُلفت فرقة أرغوتينسكي رولغوركوف بكاملها بمراقبة خارج القرية ومنع وصول الامدادات الخارجية إليها.

واندفعت الارتال الروسية داخل القرية ولكن أضاعت وضلّت طريقها وسط الاشجار وأخيراً تسلقت السور في نقطة بعيدة عن النقطة المقصودة ومنيت بخسائر باهظة. أما بقية الرتل، فقد سار في الاتجاه الصحيح وسط قرع الطبول ونفخ الابواق، وحاول رجال فوج أبشرون يقودهم ضابط شاب شجاع أن يتسلقوا من الثغرة وتبعهم فوج وارسو، ولكن النيران الفتاكة المنطلقة من مئات البنادق، حصدت المهاجمين مثل العشب، وسقط الضابط صريعاً وقد اخترقت جسده اثنا عشر طلقة، وسار النقيب فينيكوف فوق

جثته، وهو قائد سرية رماة القنابل اليدوية، وصعد على قمة الثغرة ولكنه خر قتيلاً أيضاً، لكن الجنود الروس ازدادو سخطاً وقادهم ضابط دانمركي أكثر حظاً وتمكنوا من تسلق السور والاستيلاء عليه لكن بخسائر فادحة. ثم اندفع الجنود نحو البيوت الصغيرة وتسلقوا جدرانها واندفعوا على أسطحها، فانهارت الارض تحت أقدامهم وسقطوا داخل البيوت حيث كان بانتظارهم المريدين بسيوفهم وخناجرهم وأبادوهم في لحظات. وكان المريدون قد نزعوا دعامات أسطح البيوت وأزالوا جسورها ووضعوا مكانها طبقات من الاغصان المغطاة بطبقة من التراب، وهكذا أصبح كل بيت في القرية مصيدة حقيقية للموت بالنسبة للجنود الروس. واستمر الروس في الهجوم وأصبحت معظم قواتهم داخل القرية إما فرادى أو على شكل جماعات صغيرة تائهة في الشوارع الضيقة المتعرجة وبدون قيادة مما جعلهم فريسة سهلة لجموع المريدين الذين أمعنوا فيهم قتلاً. وأمام هذه المجزرة تراجعت القوات الروسية من خلال الثغرة تحمل جرحاها وقد أعماها الغضب والسخط ثم أعادت تنظيم نفسها وجلبت الاحتياط لمساندة الهجوم الثاني لكن هذا الهجوم لقي نفس مصير الهجوم الاول مما دفع الروس للانسحاب على عجل من القرية يطاردهم المريدون الظافرون خارج حدود القرية، وعادت القوات الروسية الى معسكرها تاركة ورائها مئات القتلى والجرحى.

ومرة أخرى، تمكن شامل من هزيمة الكونت فورنستوف والذي قاد شخصياً الهجوم على غرغبيل كما قاد الهجوم على دارغو عام ١٨٤٥م.

وفي السنة التالية، عاد الروس لمهاجمة غربيل بعشرة آلاف جندي ومعهم ٤٦ مدفعاً قامت بقصف رهيب للقرية بحيث تم تدميرها وحرقها بدون اقتحام حيث تكفلت عشرة آلاف قذيفة بتدمير هذه القرية الصغيرة والتي انسحب منها المريدون عندما بدأ القصف الروسي لها وجرت معارك التحام مع الروس عندما حاول الامير برياتينسكي احتلال بساتين القرية والتي كان يدافع عنها الحاج مراد والذي تمكن من صد الهجوم وانسحبت القوات الروسية إلى خوجال ماخي المجاورة يطاردهم الحاج مراد وفرسانه». (من كتاب: احتلال الروس للقفقاس).

وفي نفس عام ١٨٤٨م، قام الروس بمحاولة اقتحام حصن تشوخ والذي كان تحت قيادة نائب شامل كييت محما ورغم قيام الروس باطلاق اثنين وعشرون ألف قذيفة مدفع على الحصن، إلا أنهم فشلوا في اقتحامه.

وانتهى عام ١٨٤٨م بغارة جريئة للحاج مراد على شورا عاصمة الروس في الداغستان وأوقع بالحامية الروسية خسائر بشرية قبل أن يغادر مسرعاً المدينة وسط ذهول الروس التام من جرأة هذا الهجوم والذي تم بقوات قليلة وسط جنح الظلام.

وفي السنة التالية قام حاج مراد بغارة على بابارات منسكايا في جورجيا الشرقية وأباد الحامية الروسية فيها.

وفي عام ١٨٥١م أرسل شامل الحاج مراد في خمسمائة فارس للاغارة على بويناخ على ساحل بحر قزوين والتي تقع بين دربند وشورا وتمكن الحاج مراد من قتل شاخ ولي شقيق حاكم تاركو على

عتبة بيته وسبى زوجته وأولاده وحصل شامل فيما بعد على فدية كبيرة نظير إطلاق سراحهم.

وفي هذه الغارة ركب الحاج مراد ورفاقه خيولهم وقطعوا أكثر من ١٠٠ ميل في أقل من ثلاثين ساعة ورغم شدة مطاردة الروس لهم، إلا أنهم نجحوا بالعودة لقواعدهم دون أذى. وقد أصبح اسم الحاج مراد مصدر رعب وذعر دائم للحاميات الروسية في القوقاز بحيث إنه في إحدى الحالات هرب ألف وخمسمائة من رجال الميليشيا الوطنيين يقودهم ضابط روسي، أمام عشرين فارساً من المريدين، هاجموهم وهم يصرخون: حاج مراد.. حاج مراد.

مقتل الحاج مراد

شهرة الحاج مراد بين مقاتلي شامل ازدادت يوماً بعد يوم نتيجة غاراته الناجحة على القوات الروسية في الداغستان والشيشان والاجزاء الشرقية من جورجيا، ومع تنامي شعبية الحاج مراد، فإن مشاعر الحسد بين نواب شامل والمحيطين به أيضاً ازدادت، ولكون معظم هؤلاء من الداغستانيين مثل الحاج مراد وشامل نفسه، فإن زعماء الداغستان المحيطين بشامل، قاموا بالكيد للحاج مراد وحذروا شامل من عواقب ازدياد مكانة الحاج مراد بين المقاتلين وبسوء نية مبطنة، أثاروا موضوع الخلافات القديمة بينه وبين الحاج مراد في إقليم أفاريا وذكّروا شامل بأنه عدوه القديم اللدود وبإمكانه أن يصبح زعيم القوقاز بعده، إذا لم يكن أثناء حياته.

ووجدت همسات حسّاد الحاج مراد آذاناً صاغية لدى شامل والذي أزعجه أكثر من أي شيء، احتمال أن يصبح الحاج مواد زعمياً للقوقاز الشمالي بعد موته.

ومنذ قيام شامل بتسليم ولده جمال الدين للروس أثناء حصار أخولكو عام ١٨٣٩م، فإن شامل كان ينتظر بفارغ الصبر عودة جمال الدين، ابنه البكر إليه ليعلنه وريثاً له، ولكن مرت السنين وجمال الدين بين يدي الروس. ولقد حاول شامل أكثر من مرة، أن يأسر شخصيات لامعة من الروس، سواء عسكريين أو مدنيين، وذلك لمبادلتهم بإبنه البكر، ولكن دون جدوى.

وعندما تزايدت حملات الكيد للحاج مراد، وعدم وجود بصيص أمل في عودة ولده جمال الدين إليه في المستقبل القريب، فقد قام شامل عام ١٨٥١م وهو في أوج وقوته العسكرية، بإعلان ولده الثاني غازي محمد كوريث شرعي لزعامة شامل في شمال القوقاز، وأيده النواب الداغستانيون في هذا القرار خصوصا دانيال بيك سلطان اليسو والذي كانت ابنته متزوجة من غازي محمد.

وكان قرار شامل بتنصيب ولده غازي محمد، وريثاً لزعامته الدينية والسياسية، سابقة فريدة من نوعها بين سكان الداغستان وبالتأكيد الشيشان والذين لا يعترفون بزعامة أحد عليهم، إلا في حالات خاصة، فما بالك بالخضوع لزعيم لم يختاروه بقناعتهم.

على أي حال، ولان الحرب مع الروس، كانت تأخذ المكانة الاولى في حياة الشيشان، فإنهم اكتفوا بالرفض داخل قرارة أنفسهم لقرار شامل ولكن لم يُظهروا أية بوادر تنم عن الاعتراض، حرصاً على وحدة الصف ضد الغزاة الروس ولانهم أقسموا يمين الولاء لشامل، طالما استمرت الحرب مع الروس.

أما الداغستان، فإن أول من اعترض على قرار شامل، كان الحاج مراد والذي عندما وصلته أنباء قيام شامل بتنصيب غازي محمد وريثاً لزعامته الدينية والسياسية، أعلن رفضه لهذا القرار قائلاً:

«السيف سيكون الحكم الوحيد في مسألة خلافة شامل».
(سيوف الجنة)، ص ٢٦٨.

وبالطبع، رفض الحاج مراد لقرار شامل، كان فرصة ثمينة لمن

حوله من الزعماء الداغستانيين، لتحريض شامل على عقاب الحاج مراد، لانه برفضه لقراره أصبح خائناً للعهد ومتمرداً على سلطة شامل الدينية والسياسية.

ولسوء حظ شامل، فإن جميع المحيطين به كانوا تقريباً من زعماء الداغستان والذين خافوا على سلطاتهم أن تزول إذا تولى الحاج مراد الزعامة وبالتالي، لم يُظهر أي واحد منهم موقفاً حيادياً وصريحاً في مسألة قرار شامل بتوليته غازي محمد كوريث له، كما لم يدافع أحد، عن ردة فعل الحاج مراد أو محاولة تبريره وإيجاد العذر له.

وعندما وصلت شامل كلمات الحاج مراد، استشاط غضباً، وأصدر على الفور قراراً بتجريد الحاج مراد من رتبته كنائب لشامل في الداغستان وأرسل على الفور، رسولاً إلى الحاج مراد يبلغه هذا القرار والذي تضمن أيضاً، مطالبة الحاج مراد بتسليم جميع الغنائم والاسلاب التي حصل عليها الحاج مراد في غاراته الناجحة على الروس.

وعندما قام رسول شامل تبليغ الحاج مراد قرار شامل بحقه، فقد رد الحاج مراد قائلاً:

«غنائمي حصلت عليها بسيفي، وإذا أراد شامل هذه الغنائم ليحضر بنفسه ويأخذها بسيفه». (سيوف الجنة، ص ٢٦٨).

وعندما وصل جواب الحاج مراد لشامل، فإنه ازداد سخطاً على الحاج مراد وجهز قوة كبيرة للذهاب إلى الداغستان وقتال الحاج مراد، لكن الزعماء الشيشان من القادة الميدانيين للمقاتلين وأيضا

رجال الدين المحليين سواء في الشيشان أو الداغستان، تدخلوا بين الاثنين، لان الانقسام والفرقة بين الصفوف، لن يخدم سوى الغزاة الروس. وقد وافق شامل والحاج مراد على نبذ خلافهم جانباً والتفرغ لحرب الروس على أن يُحل الخلاف لاحقاً بعد انتهاء الحرب، وذلك حسب عادات القبائل في شمال القوقاز في تسوية الخلافات الشخصية.

ان شامل في قرارة نفسه، وبتأييد من بطانته الحاسدين، اعتبر المصالحة مع الحاج مراد، هزيمة معنوية له ونصراً للحاج مراد وبالتالي فقد قام بعقد «محاكمة للحاج مراد» وأصدر قراراً بإعدامه بتهمة الخيانة العظمى. ووصل خبر المحاكمة السرية للحاج مراد، عن طريق أحد نواب شامل الذين حضروا جلسة المحاكمة، وعندها أسرع الحاج مراد مع أربعة من أتباعه إلى أقرب حامية روسية حيث سلّم نفسه لقائدها الامير سيمون فورنتسوف نجل الكونت فورنستوف، القائد العام للقوات القيصرية في القوقاز. وهكذا، خسرت صفوف شامل واحداً من ألمع قادتها الميدانيين بسبب نزاع شخصي بين شامل وهذا القائد الذي حاز إعجاب وتقدير جميع القادة الميدانيين ومقاتليهم وبالتالى خسر شامل مجدداً ثقة محاربيه والذين أخذوا على شامل إقحامه مسائل شخصية في وقت عصيب ولا يحتمل شق الصفوف وهدر الطاقات في مسائل جانبيه ذات طابع شخصي.

سرور الروس كان عظيماً بهروب الحاج مراد إليهم حيث إنهم كانوا يعتبرونه «أخطر» رجال شامل وأكثرهم جرأة وشجاعة في حربهم.

وتم نقل الحاج مراد على جناح السرعة إلى تفليس حيث مقر القيادة الروسية القيصرية العليا حيث تم استقباله كضيف شرف وتم تكريمه بكل مظاهر الترحيب لان كسب ولاء الحاج مراد كان بالتأكيد نصراً سياسياً وعسكرياً للروس . كما أن لهفة الروس على كسب ولاء الحاج مراد من جديد لم تكن تقل عن خشيتهم من فراره من جديد وانضمامه لشامل أو على الاقل قتاله منفرداً ضدهم وبالتالي فإن الحاج مراد وأتباعه الاربعة كانوا على الدوام تحت المراقبة الدائمة وكانت ثلة من الحرس الكوزاك ترافقهم أينما ذهبوا .

وكان الحاج مراد فور التجائه للروس ، قد طلب منهم المساعدة في تخليص زوجته وعائلته في تيسلمس بالداغستان بإعطائه قوة عسكرية وتعهد للروس بأن يثير كل الداغستان ضد شامل ولكن الروس كانوا يماطلون في مساعدته ومع ازدياد خوف الحاج مراد على عائلته من انتقام شامل فقد طلب من الروس نقله الى قرية نوخا في الداغستان والتي كان يحتلها الروس ، وذلك ليكون قريباً من عائلته ويمكنه منها سماع اخبارها . ووافق الروس على إقامة الحاج مراد في نوخا ، وقضى الحاج مراد أيامه في نوخا ، معتكفاً بالمسجد وبلغته الاخبار بأن شامل نقل عائلته إلى مقره في فيدن- دارغو كرهائن إلى حين القبض عليه كما وأن ابنه غير معروف مصيره وأخذه شامل إلى مكان مجهول وانقطعت أخباره .

وفي ظل الصراع الداخلي بين لهفته على عائلته ومماطلة الروس في تزويده بالرجال لتخليص عائلته «حياة السجن» التي كان يعيشها بين الروس من خلال الحرس الذي كان دائماً حوله لمراقبته ، فقد

قرر الحاج مراد الهرب ثانية والعودة إلى بلدته وأتباعه وبعدها ليكن مايكون .

وأفضى الحاج مراد لرفاقه الاربعة بنيته في الهرب وتحدد صباح اليوم التالي لتنفيذ خطة الهرب وقضى الجميع ليلتهم وهم يُعدون أسلحتهم النارية ويشحذون خناجرهم . وفي صبيحة اليوم التالي وأثناء النزهة اليومية للحاج مراد وأتباعه ، يحيط بهم ثلة من الفرسان الكوزاك بقيادة ضابط صف روسي ، فقد انطلق الحاج مراد مسرعاً بحصانه إلى الامام يحيط به رفاقه وانتبه ضابط الصف الروسي لحركة الحاج السريعة للامام ، فجرى خلفهم وهو يصرخ بالفرسان الكوزاك أن يتبعوه لان الحاج مراد قد عزم على الهرب .

وبدأت المطاردة بين الجماعتين ، وتمكن ضابط الصف الروسي من اللحاق بالهاربين وعندما أصبح قريباً وموازياً للحاج مراد ، التفت هذا سريعاً نحوه وعاجله برصاصة استقرت في قلبه فسقط صريعاً من على صهوة جواده . وتوقف الحاج مراد وجماعته عن الهرب واختبأوا قريباً من جثة الضابط القتيل وعندما وصل الخيالة الكوزاك مكان جثة ضابطهم توقفوا لفحص الجثة فانفض عليهم فجأة الحاج مراد وجماعته وأردوهم قتلى بسيوفهم قبل أن تسنح للكوزاك حتى فرصة شهر سيوفهم .

وبعد التخلص من الحراس ، انطلق الحاج مراد وفرسانه الاربعة نحو قرية الحاج مراد حيث أتباعه .

وبعد ساعات من الحادثة ، علم قائد الحامية الروسية في نوخا بما حدث من خلال بعض القرويين الذين مروا لاحقاً في مكان

الحادث وشاهدوا القتلى من الفرسان الكوزاك وضابطهم الروسي، وقام قائد الحامية الكولونيل كورغانوف على الفور بتجهيز قوة مطاردة على وجه السرعة وانطلق خلف الحاج مراد وسلك طريق بايارات مينسكايا والتي راهن كورغانوف على أن الحاج مراد سيسلكها أثناء هربه لانها نفس الطريق التي هرب منها عام ١٨٥٠م عندما هاجمها الحاج مراد عندما كان لا يزال في صفوف شامل.

وكان رهان كورغانوف في محله، حيث كان الحاج مراد وصحبه بالفعل قد سلكوا نفس الطريق ولهذا وبعد يومين أي في ٢٣ نيسان ١٨٥٢م تم اللحاق بالحاج مراد خصوصاً وأن الهاربين قد اطمأنوا لانفسهم بعد قتلهم للحرس بأنه لن تتم مطاردتهم إلا بعد وقت طويل، كانوا قد توقفوا في الطريق لاداء الوضوء والصلاة خلال اليومين السابقين وتم تطويق الحاج مراد وأتباعه الاربعة في احدى الغابات التي كان قد دخلها الحاج مراد للصلاة وشاهده أحد القرويين ومعه أتباعه وأبلغ الضابط الروسي بما رأى حين سأله عن فرسان خمسة يبحثون عنهم. وحاول الكولونيل كورغانوف، إقناع الحاج مراد وأتباعه بالاستسلام ولكن دون جدوى، وفي هذه الاثناء، وصلت مجموعات من الفرسان الوطنيين بقيادة أحد أبناء أحمد خان مختولي عدو الحاج مراد اللدود والذي عندما سمع بهرب الحاج مراد جهز قوة كبيرة من الفرسان وانطلق لمطاردته ومنعه من الهرب من أيدي الروس.

وبوصول الفرسان المحليين، أصبح عدد الاعداء خمسمائة فارس، وعندما أيقن المحاصر بأنه لا أمل لهم بالنجاة، صمموا على

الموت كما تمليه مثل هذه المواقف على الفرسان الشجعان وقاموا بقتل خيولهم واستخدموها كمتاريس وبدأت معركة غير متكافئة بين الجماعتين واستمرت ساعات وعندما فرغت ذخيرة الحاج مراد ورجاله استلوا سيوفهم وهجموا على أعدائهم فقتل اثنان من أتباع الحاج مراد برصاص الاعداء وجرح آخران. أما الحاج مراد فقد أصابته رصاصتين كانت احداهما قاتلة ولكنه تمالك نفسه ونهض على قدميه وهجم شاهراً سيفه على الاعداء وتمكن من قتل أول من وصل إليه لكن الرصاص انهال عليه بغرازة فسقط قتيلاً وسيفه بيده.

وقام ابن عدو الحاج مراد القديم أحمد خان مختولي بقطع رأس الحاج مراد وتم إرساله إلى تفليس كدليل على مقتل الحاج مراد الاكيدة وذلك لاضعاف معنوية أتباعه. وتم لاحقاً إعدام الاسيرين الجريحين من رفاقه في الهرب.

وهكذا انتهت حياة فارس من أشجع فرسان حرب القوقاز الاولى نتيجة خطأ شامل واتخاذه قرارات لمصالحه الشخصية دون اعتبار لما تحدثه مثل هذه القرارات من أثر سلبي على مجريات الحرب مع الروس وبالتأكيد، فإن الميتة البطولية للحاج مراد، زادت من مشاعر السخط على شامل في صفوف جيشه خصوصاً بين الشيشان والذين كان رفاق الحاج مراد في موته منهم.

حرب القرم والفرصة الذهبية لهزيمة الروس

هزيمة الاتراك عام ١٨٢٩م أمام الروس في شبه جزيرة القرم وخسارتهم لميناء أنابا نهائيا للروس، كان من أهم نتائجه انقطاع الاتصالات المباشرة بين تركيا وشمال القوقاز بشكل عام وشراكسة البحر الاسود بشكل خاص والذين كانوا أقرب سياسياً ومعنوياً لتركيا من الداغستان والشيشان.

ونظراً لان تركيا كانت قد بدأت تضعف عسكرياً في أوروبا الشرقية وبالتحديد في البلقان، فإن روسيا القيصرية امتدت أطماعها «لتحرير» شعوب البلقان السلافية من الحكم التركي والذي وصفه نيكولاس (نقولا) الاول قيصر روسيا على أنه «رجل مريض» وبالتالي فإن وراثة أملاكها حق من حقوق روسيا القيصرية باعتبارها زعيمة السلاف والكنيسة الشرقية.

وأراد القيصر عقد صفة سياسية مع انجلترا بحيث تسمح انجلترا لروسيا القيصرية حرية الحركة في البلقان وآسيا الصغرى مقابل سكوت روسيا القيصرية على احتلال انجلترا لمصر والقضاء على محمد علي باشا والذي كانت قواته قد هاجمت اناتوليا التركية.

كما أن انجلترا كانت متشككة من نوايا روسيا في أفغانستان والهند خصوصاً وقد وردت أنباء موثوقة لانجلترا بأن الروس كانوا على اتصال مع حكام قندهام وكابول والذين كانوا يهددون «التجارة البريطانية في الهند». كما وأن عملاء للروس، على شكل تجار،

كانوا قد اتصلوا بحاكم قندهار وحاكم كابول، وأبدوا لهم استعداد روسيا لمساندتهم ضد حاكم لاهور الموالي لبريطانيا كما وعد الروس حاكم قندهار بوضعه تحت حماية إيران الصفوية وبالتالي تحقيق أحلام حاكم إيران بضم هيرات للنفوذ الايراني مقابل حياد إيران في القوقاز وفي الحرب ضد تركيا والتي كانت وشيكة وعلى ضوء هذه المعلومات، فقد رفضت بريطانيا التعاون مع روسيا القيصرية في اقتسام أملاك تركيا العثمانية.

وإزاء هذا الرفض، فقد انفردت روسيا القيصرية بالقرار، وقامت باحتلال مولدافيا وكذلك والاشيا في أوروبا الشرقية، وفي نفس الوقت، هاجم الادميرال ناكيموف الاسطول التركي في سينوب. وأغرقه بأكمله وكلا العملين من جانب روسيا القيصرية، أثار الحكومة البريطانية والفرنسية واللتان قررتا مساعدة تركيا والتي أعلنت الحرب على روسيا والتي قامت أيضا بمهاجمة حصن سيليستريا في البلقان. وقامت تركيا بحشد قوات برية ضخمة في حدودها مع القوقاز كما تم ارسال صفر بيك الشركسي المقيم دائماً في اسطنبول إلى سوخومي لاثارة شراكسة البحر الاسود ضد روسيا.

وكانت خطة الاتراك قائمة على تنفيذ هجوم من ثلاث محاور بمساعدة انزال بحري بريطاني فرنسي مشترك من سواحل البحر الاسود الى شبه جزيرة القرم يتبعه تقدم الاتراك من باطوم وأردهان وقارص باتجاه تفليس وبمساعدة السكان المسلمين في جورجيا وشراكسة البحر الاسود يتم دحر الجيش الروسي المتواجد في القوقاز.

ومن الغـريب بمكان، بأن الاتراك في خطتهم هذه لم يحـاولوا الاتصـال بشامل والتنسيق معه رغم أن هجوم من شامل باتجاه شرق جورجيا في نفس الوقت الذي تتقدم فيه القوات التركية من جهة الغرب كان كفيلاً بتحقيق انتصار مؤكد على القوات الروسية في منطقة القوقاز وفصلها عن روسيا القيصرية في الشمال.

على أية حال. التنسيق بين تركيا من جهة والقوات البريطانية الفرنسية المشتركة والشراكسة وشامل لم يترجم عملياً حيث اكتفى الانجليز باحتلال سفاستبول وكذلك تدمير القوة البحرية الروسية في البحر الاسود ولم يقوموا بدورهم البري في انزال قوات في شبه جزيرة القرم. أما الشراكسة، فقد انقسموا بين مؤيد ومعارض وحيادي من الوقوف إلى جانب الاتراك.

أما شامل، فقد أرسل وفداً إلى مقر القيادة البريطانية الفرنسية المشتركة في فارنا ببلغاريا لكن المباحثات لم تسفر عن شيء حيث أظهر الانجليز والفرنسيون عدم اهتمام ومبالاة بصراع شامل مع الروس في الداغستان وشيشانيا وأبلغوه بأنهم مهتمون بالشراكسة أكثر من اهتمامهم به. هذا الجواب كان هو نفسه الذي تلقاه شامل من عمر باشا، قائد القوات التركية التي احتشدت على حدود تركيا مع القوقاز والتي تقدمت بدون مقاومة نحو جورجيا ووصلت إلى زوغديدي وتوقفت هناك رغم أن الطريق أمامها كان مفتوحا للتقدم أكثر نحو تفليس عاصمة جورجيا. (من كتاب حاجز شمال القوقاز، ص ٨٥- ٩٨).

وقد انتهز شامل فرصة نشوب حرب القرم لتحقيق ولو مكاسب

معنوية في الداغستان والشيشان. وقام بإرسال حملة لغزو إمارة جارو بيليكاني في جورجيا لكنها فشلت في تحقيق أهدافها كاملة لكن حملته على وادي الالزان الخصب كانت أكثر نجاحاً لشامل حيث تم في هذه الحملة أسر اميرتين بارزتين من أصل جورجي تمت مبادلتهما لاحقاً بجمال الدين والذي كان قد أصبح بعد هذه السنوات الطويلة مع الروس ضابطا في حرس القيصر الخاص وعاد رغم إرادته للداغستان وفقط لانقاذ الاميرتين من أسر والده وبعد ثلاثة سنوات من عودته توفى جمال الدين بمرض غريب قيل أنه كان كآبة شديدة وتوتر نفسي نتيجة حرمانه من حياته التي نشأ عليها منذ أن وطأت قدماه بلاط القيصر كرهينة عام ١٨٣٩م.

أما عمر باشا وقواته، فقد أصيبت قواته عام ١٨٥٤م بهزائم متلاحقة من قبل الروس والذين استطاعوا دحره وطرده لداخل تركيا وتمكنت قوات الجنرال ببتوف من هزيمة الجيش التركي في كوربوك- دار الواقعة بين قارس والكساندربول.

أما الايرانيون والذين كانت لديهم أطماعهم الخاصة بالعودة إلى أذربيجان وسواحل بحر قزوين، فإن هزيمة الاتراك في كوربوك دار، ثبطت عزائمهم واكتفوا من المكاسب في هذه الحرب بموافقة روسيا على اعفائهم من بقية الغرامة الحربية التي كانت قد فرضت عليهم عام ١٩٢٨م بموجب معاهدة تركمنتشاي.

وانتهت حرب القرم عام ١٨٥٦م بتوقيع معاهدة باريس وبموجب هذه المعاهدة عاد الروس لشبه جزيرة القرم مع تخليهم عن مولدافيا وآلاشيا التابعتين لرومانيا وكذلك موافقة الروس على

اعتبار منطقة البحر الاسود «منزوعة السلاح» وبالتالي حرمت روسيا من أي وجود عسكري في البحر الابيض المتوسط والذي يتصل بالبحر الاسود عبر مضيق البوسفور أو الدردنيل التركي.

وبانتهاء حرب القرم عام ١٨٥٦م، فإن هزيمة شامل العسكرية في شمال القوقاز أصبحت حتمية حيث أصبح بإمكان الروس حصر مجهودهم العسكري ضده بعد خروج القوة العسكرية لروسيا القيصرية سليمة من القرم والتي كان بالامكان أن تكون نصرا ساحقا لشعوب شمال القوقاز، لو توفرت النية لدى تركيا وانجلترا وفرنسا في دعم قضية استقلال شعوب شمال القوقاز عن روسيا القيصرية من خلال التنسيق والتعاون مع شامل وشراكسة البحر الاسود في الحاق هزيمة حتمية ونهائية بالجيش الروسي القيصري في منطقة القوقاز بأكملها.

خسارة شامل لبلاد الشيشان

خرجت روسيا القيصرية من حرب القرم عام ١٨٥٦م سليمة عسكرياً ونظراً للخطورة العسكرية والاستراتيجية التي شكلتها شعوب القوقاز على روسيا القيصرية أثناء الحرب مع تركيا وانجلترا وفرنسا والتي «لحسن حظ» روسيا القيصرية لم يستغلها أعدائها في الحرب وبشكل خاص تركيا العثمانية، فقد عزمت روسيا على وضع حد، وللابد، لمثل هذا الخطر، حماية لمستقبلها العسكري ليس في القوقاز فحسب، بل وكدولة عظمى ذات سيادة ومصالح دولية. ومن هذا المنطلق، فقد شرعت روسيا في سلسلة من الاجراءات الادارية والعسكرية استعداداً للقضاء على شامل والذي كان يُمثل الخطر الحقيقي على وجودها في القوقاز.

ومن ضمن الاجراءات العسكرية الميدانية التي شرعت روسيا القيصرية في تحقيقها، تركيز اهتمامها على اخضاع واحتلال بلاد الشيشان والتي كانت روسيا القيصرية قد أدركت بأنها مصدر قوة شامل نظراً لتزويدها قوات شامل بالمقاتلين والغذاء والعلف.

ولتنفيذ خطة إخضاع الشيشان، فقد تم تعيين الامير باريا تينسكي قائداً عاماً لجيوش القوقاز من قبل القيصر الكسندر الثاني والذي كان قد خلف القيصر نيكولاس (نقولا) الاول والذي توفي فور انتهاء حرب القرم. تعيين الامير بارياتينسكي قائداً عاماً للقوقاز كان له دلالة واضحة على تصميم القيصر الجديد على حسم الصراع مع

شامل حيث إن بارتينسكي كان أيضاً ولي عهد القيصر الكسندر الثاني. وقام بارياتينسكي بتقسيم جيوش القوقاز إلى خمسة جيوش منفصلة ولكل جيش قائد يتمتع بصلاحيات كاملة تحت قيادته المباشرة.

وبدأت خطة اخضاع الشيشان بعمليات قصف مدفعي للقرى الزراعية وللغابات واقتحام هذه القرى بعد تدميرها لاجبار سكانها إما الاستسلام ومن ثم النقل للشمال حيث تتمركز القوات الروسية الرئيسية، أو على الهرب واخلاء القرى للجيش الروسي. وطوال عام ١٨٥٦م فإن شيشانيا ملأها الخراب والدمار واحترقت مئات القرى وازدادت الخسائر بين الشيشان خصوصاً وأن الجيش الروسي كان قد تزود ببنادق حديثة حلت مكان بنادق الدك القديمة التي كان يستخدمها والتي كانت تحتاج لاعادة ملاها بالبارود بعد كل طلقة. في نفس الوقت، فإن دقة ومدى هذه البنادق كان أفضل بكثير، مما تسبب في زيادة الخسائر بين الشيشان والذين لم يكن لديهم سوى بنادق الدك القديمة والسيوف التي لم تعد تُجدي أمام عدو يعتمد على الالتحام البعيد واستخدام المدفعية الثقيلة والبنادق الحديثة.

إضافة للغارات العسكرية، فقد شرع الروس في قطع الغابات وأشجار البلوط والزان الضخمة وشق الطرق العريضة في بلاد الشيشان وذلك لتسهيل عمليات نقل القوات والمؤن والذخائر للجيوش الروسية، وخلال أشهر قليلة ازيلت آلاف الاشجار الضخمة والتي كانت الواحدة منها ترتفع إلى ٢٨٠ قدماً ويبلغ محيطها ٣٥ قدماً، وكانت عمليات قطع الاشجار تتم تحت حراسة

كتائب كاملة من المدفعية الروسية والجنود.

إضافة لسياسة «الارض المحروقة» وبناء الجسور وشق الطرق العريضة، فقد غيّر بارياتينسكي سياسة التعامل مع الشيشان نحو الافضل، حيث توقفت عمليات الانتقام وقتل النساء والاطفال لتحل محلها «سياسة إنسانية» قائمة على التسامح والعفو حتى مع المقاتلين إلى درجة أنه في إحدى المعارك التي نشبت بين المدافعين الشيشان والقوات الروسية التي اقتحمت قريتهم، ورغم الخسائر الباهظة بين الجانبين خلال المعركة والتي انتهت بأسر المقاتلين الشيشان القليلي العدد، فقد قام بارياتنيسكي بصرف الحراس الروس وطلب من المقاتلين الشيشان حراسته في خيمته والتي سيدخلها ليستريح من عناء المعركة وسط ذهول وحيرة المقاتلين الشيشان. هذه «السياسة الانسانية» والتي كان الامير بارياتينسكي قد اتبعها منذ عام ١٨٥٢م-١٨٥٦م حيث كان قائداً لجيش الجناح الايسر في القوقاز، على عكس بقية قادة الجيوش الروسية الاخرى، أصبحت هي «السياسة العامة» في التعامل مع الشيشان بعد استسلامهم مما كان له أبلغ الاثر في اقتناع الشيشان، على الاقل، قسم كبير منهم، بأن العيش بسلام مع الروس ممكن وربما أفضل من العيش تحت حكم شامل الذي لا يرحم منافسيه كما فعل مع الحاج مراد.

أما شامل، فقد كان يراقب هذه التطورات في بلاد الشيشان ويعلم بأنها ليست في صالحه، لان خسارته لبلاد الشيشان كان معناه الهزيمة الحتمية النهائية له في الداغستان، تماماً كما حدث عام ١٨٣٩م في أخولكو. حزن واستياء لما يحدث تحت سمعه وبصره

في بلاد الشيشان، كان يفاقمه كونه لا يملك حولاً ولا قوة في التدخل لايقاف هذا التدهور العسكري لقواته في بلاد الشيشان.

«الصدمة النهائية» لآمال شامل بالاستمرار في المقاومة، جاءت على أيدي أقرب الناس حوله والذين فضلهم على غيرهم وهم أمراء الداغستان الذين وثق بهم رغم أن بعضهم كان قد خانه من قبل. ففي عام ١٨٥٧م انشق عنه دانيال بيك سلطان بيك إليسو ووالد زوجة غازي محمد ابنه ووريثه، حيث انضم دانيال بيك إلى الروس ثانية مع أتباعه كما أن كيبيث محما، نائبه المفضل في الداغستان بدأ اتصالاته بالروس للانضمام إليهم ضده.

وجاءت الضربة القاضية لشامل في بلاد الشيشان في ١٨٥٨م عندما تمكنت القوات الروسية من الاستيلاء على أودية نهر الارغون العليا وممراتها في بلاد الشيشان، وكان هذا معناه، فصل شامل عن الشيشان والانجوش التي تقع غرب نهر الارغون عن شمال الداغستان ومقاطعتي عندي وإتشكيريا المحاذيتين حيث معقل شامل ومنطقة نفوذه الرئيسية.

وتم الاستيلاء على ممر نهر الارغون، رغم أن شامل كان لا يزال تحت تصرفه عدة آلاف من المقاتلين، لا سيما من الداغستان، وكان بإمكانه التدخل ومهاجمة الروس لمنع، أو على الاقل، تأخير تقدم جيوش القيصر في بلاد الشيشان ولكنه اكتفى بالمراقبة، مما ساعد على اقتناع كثير من الشيشان بعدم جدوى مقاومة الروس وبالتالي عجّل في خضوعهم لحكم القيصر. وكان الجنرال يفدوكيموف هو «مهندس» عمليات احتلال منطقة الارغون.

وفي صيف عام ١٨٥٨م قامت ثورة في نازران عاصمة الانجوش بسبب قيام الروس بعد احتلالهم لها بجمع الانجوش من قراهم الصغيرة ومزارعهم المبعثرة، في مستوطنات كبيرة. وقد أرسل الانجوش إلى شامل يطلبون مساعدته في ثورتهم والتي بدأت بقتل عدة جنود روس ومحاولة اقتحام قلعة نازران ولكن بدون فائدة.

وانتهز شامل الفرصة، وعبر بقواته نهر تشانتي أرغون متجهاً نحو نزران لكن مدفعية يفدوكيموف تصدت له وأوقعت به بعض الخسائر، مما دفعه للعودة ثانية إلى قواعده في الجبال في فيدن- دارغو.

أما الروس، فقد حشدوا قوة نجدة عاجلة لحامية نزران، وتحركت القوة على عجل ودخلت نزران وانقذت الحامية من الحصار، وتم قمع الثورة وشنق قادتها الاربعة علناً وتم تعليقهم على برج أقيم على تلة عالية، كما تم نقل أربعون طفلا من أطفال بقية زعماء الانجوش، الى فلادي كافكاز (عاصمة أوستيتا الشمالية حاليا) كرهائن، وذلك ضماناً «لحسن سلوك أبائهم».

وبعد ستة أسابيع، اندفع شامل ثانية نحو نزران على رأس أربعة آلاف مقاتل، لكن يفدوكيموف علم فوراً بتحرك شامل فقام بتعزيز الحامية بنجدة كبيرة، وعندما وصل شامل لنزران تعرض لهجوم مباغت، بدل أن يباغت هو نزران، ونظراً للقوة الروسية الضخمة التي كانت بانتظاره في نزران، فقد انسحب شامل على عجل بعد أن خسر ٣٧٠ مقاتلاً.

وبعد أن أحكم الروس سيطرتهم على منطقة الارغون، فقد كان

هدفهم التالي هو احتلال فيدن دارغو في إقليم اتشكيريا الشيشاني الجبلي، ولهذا تحرك يفدوكيموف بحذر من قاعدته في فوزدفيجنسكوي واستولى بسهولة على مرتفعات تاوزن مما اضطر شامل للتراجع نحو الجنوب تاركاً فيدن- دارغو خالية للروس والذين احتلوها دون مقاومة.

وكان لسقوط فيدن- دارغو آثاراً معنوية أكبر من آثارها العسكرية حيث اقتنع الشيشان الجبليون، والذين كانوا لا يزالون على عنادهم للروس وولائهم لشامل، بأن الحرب أصبحت عقيمة فاستسلمت مناطق تشابرلوي واتشكيريا وأوخ العليا وكانت هذه المناطق هي مقر أكثر قبائل الشيشان شراسة.

أما في الداغستان، فإن انضمام دانيال بيك واتباعه للروس وكذلك توقف كيبيث محما، نائب شامل في تيلتيل، عن المقاومة، ساعد كثيرا على خضوع الداغستان للروس بحيث لم يبق لشامل سوى شمال الداغستان خصوصا وأن الافار في انتسوخ استسلموا أيضا للقوات الروسية.

وأمام هذه الانتصارات الروسية المتلاحقة، فقد انتقل شامل الى ايتشيكالي عند نهر غويسو واستعد للدفاع عن ممر ذلك النهر، كما أعلن التعبئة العامة، ولكن دون جدوى، لكن الروس استطاعوا احتلال الاودية العليا لنهر غويسو. وكان شامل، قد تحرك مع عائلته إلى غونيب، تاركا مهمة حماية ايتشيكالي الى ابنه غازي محمد، لكن غازي محمد أثبت صحة رأى الشيشان والحاج مراد به، حين تراجع عن حماية الموقع الذي كُلف به بالدفاع عنه رغم حصانته

ومناعته، تاركا أحد عشر مدفعا، غنيمة باردة، للقوات الروسية.

انسحاب غازي محمد اتيشيكالي ترك كامل منطقة أفاريا مفتوحة للروس وتمكن الروس من احتلال قلعتي، أولو، وتشوخ الشديدة المناعة كما ظهر كيبيث محما نائب شامل السابق في غولوتل، وقاد بنفسه طليعة القوات الروسية لاحتلال تيلتيل. أما دانيال بيك، والد زوجة غازي محمد، فقد سلّم قلعة إريب وغيرها من القلاع التي كان يحكمها للروس وذهب بقواته إلى الامير بارياتينسكي في بوتليخ لينضم إلى القوات الروسية الرئيسية التي كانت تستعد للهجوم النهائي على غونيب، أحد معاقل شامل في حرب القوقاز الاولى والتي أصبحت نهايتها على الابواب.

الصمود الاخير لشامل

بعد أن ترك شامل اتيشيكالي بحماية ولده غازي محمد، استقر في قرية كراتا القريبة ليفاجأ بعد أيام بغازي محمد ينضم إليه تاركاً اتيشيكالي مفتوحة للروس.

وحيث إن كراتا لم تعد مأمونة له، فقد قرر الامام أن يغادر إلى غونيب وهي حصن طبيعي منيع للغاية ومنعزل تماما عن الجبال التي حوله ومزوداً بالماء العذب وتربته خصبة ومزارعه قادرة على زراعة الشوفان والشعير والعشب ومنتجات البساتين.

ولبعد غونيب عن الجبال التي حوله، ونظرا لان المدفعية الروسية لم تكن قادرة على قصفه من الجبال المحيطة لان مداها لم يكن كافياً، فإن غونيب كانت حصناً قادراً على الصمود ولمدة طويلة إذا توفر لها عدد كاف من المدافعين.

وغادر شامل كراتا عن طريق دائري طويل مع عائلته وعدد قليل من أخلص أتباعه بينهم مجموعة من القادة الميدانيين الشيشان أمثال بويسغر وسلتمرد وأتابي وعوما وغيرهم والذين بقوا على ولائهم وإخلاصهم له رغم عدم رضاهم عن قيادة شامل وعن قراراته الخاطئة السابقة والتي أدت إلى هذه النهاية المحزنة.

وأثناء تحرك شامل ومن معه إلى غونيب، قامت بعض القبائل الداغستانية المجاورة بمهاجمة قافلة أمتعة وأموال الامام ونهبوها مما أضاف بؤساً للحالة التي انتهى إليها شامل والذي كان يوماً من الايام السيد المطلق في الداغستان والشيشان.

على أي حال. سكان غونيب بقوا على ولائهم لشامل والذي بدأ فور وصوله بتنظيم قواته القليلة والتي بلغت نحو أربعمائة مقاتل، بما فيهم رجال قرية غونيب، وذلك للدفاع النهائي عن آخر معاقله في هذه الحرب الطويلة.

وفي التاسع من آب عام ١٨٥٩م وصلت الجيوش الروسية إلى غونيب وبدأ الحصار الاخير لشامل وتولى الامير بارياتنيسكي شخصياً قيادة القوات الروسية والتي بلغ عددها أربعين ألف مقاتل مقابل أربعمائة شيشاني وداغستاني بقوا على ولائهم ولآخر لحظة لشامل والذي أصبحت نهايته حتمية ومسألة وقت، ليس إلا.

وفي عشية ميلاد الامبراطور الكسندر الثاني في ٢٥ آب أصدر الامير بارياتنيسكى أوامره باقتحام غونيب وبدأ الهجوم صباحاً، وبمساعدة الضباب بدأ الجيش الروسي ومعه الميليشيا الوطنية لامراء الداغستان الذين انحازوا لهم، بالهجوم على أسوار القرية يتبعهم الجنود الروس الظافرون والذين أحاطوا بالقرية من جميع الاتجاهات. وبدأت عملية اقتحام القرية ودار قتال شرس في إحدى مداخل القرية حيث تجمع مائة من مقاتلي شامل والذين أحاط بهم الجنود الروس من كل جانب، لكنهم ورغم قلة عددهم، رفضوا الاستسلام وقاتلوا لآخر رجل ونالوا نهاية تليق بالابطال. ثم ظهرت مجموعة أخرى من مقاتلي شامل ومعهم ثلاثة نساء يحملن السيوف وهاجموا الجنود الروس لكنهم قتلوا جميعاً بعد معركة دموية قاتلت النساء فيها مثل الرجال وتكررت ميتة الابطال مرة أخرى في شوارع غونيب الضيقة.

أما شامل، فقد تراجع لوسط القرية يحيط به من بقي حياً من أتباعه ولكن الروس لم يتقدموا نحوه حيث إن الامير بارياتنيسكي، ولاهداف بعيدة المدى، أراد أن يظفر بشامل حياً إن أمكن، ولهذا أرسل اثنين من رجاله ليعرضوا على شامل الاستسلام دون قيد أو شرط مقابل الابقاء على حياته وحياة عائلته ومن بقي معه من المقاتلين. وعندما وصل رُسل بارياتنيسكي لمكان شامل ونقلوا إليه عرض قائدهم له بالاستسلام، دعا شامل محاربيه للاجتماع وأبلغهم بعرض الروس وبأنه حرصاً على أرواح من بقي معه من المقاتلين وسكان القرية الذين بقوا مخلصين له لآخر لحظة. فإنه قرر أن يستسلم ويقبل بشروط وعرض الامير بارياتنيسكي له بالاستسلام. ومن جميع المحيطين بشامل في تلك اللحظات البائسة اليائسة، فإن بويسغر الشيشاني وزملاؤه سولتمرد وأتابي وعُما وبقية القادة الميدانيين الشيشان الذين بقوا أحياء حتى هذه اللحظة، رفضوا الاستسلام وإلقاء السلاح وأنكروا على شامل وهو إمام الجهاد كما أعلن نفسه لهم، بأن يُلقي السلاح ويستسلم.

وكان بويسغر هو أشجع القادة الميدانيين الشيشان وأكثرهم جرأة في ميادين القتال بحيث إن شجاعته وجرأته كانت موازية لشجاعة وجرأة الحاج مراد، طوال سنوات القتال ضد الغزاة الروس وكان بويسغر هذا، قد فقد في المعارك التي خاضها ضد الروس عيناً ويداً وساقاً، لكنه ورغم مظهره البشع بهذه التشوهات إلا أنه بقي من أشجع الرجال ومرهوب الجانب حتى من شامل نفسه والذي لم يكن أحد يجرؤ طوال سنوات حكمه الاخيرة أن يناقشه سوى بويسغر هذا.

وعندما سمع بويسغر قرار شامل بالاستسلام، انفجر بويسغر غاضبا قائلا للامام:

«لقد نصرك الشيشان بعد أن خذلك أهلك وجماعتك في الداغستان ولقي نصف الشعب الشيشاني مصرعه في ميادين القتال ودمرت بلادنا تماماً وأحرقت مزارعنا وغاباتنا من أجل قضية الجهاد ضد الغزاة الروس. كيف تقبل الاستسلام وترفض أن تموت شهيدا كما فعل الامام منصور ومن بعده الامام غازي محمد؟ كيف تكون إماما للجهاد وتقبل الاستسلام؟ إعلم أيها الامام بأني سأقتلك بيدي إذا سرت نحو العدو واستسلمت له». (من كتاب عبر دروب الجبال).

لكن شامل ورغم الوقع الثقيل والمؤلم لكلمات بويسغر عليه فإنه أصر على موقفه والذي لم يعترض عليه نوابه الداغستانيون، وتم إبلاغ رسل الامير بارياتنيسكي بقبول شامل بما عُرض عليه. وركب شامل حصانه واستعد للذهاب للامير بارياتنيسكي وعندها شهر بويسغر سلاحه الناري وصوّبه نحو شامل والذي تجاهل حركة بويسغر وأدار له ظهره واتجه مع الكولونيل لازاريف الارمني الاصل والذي كان الامير بارياتنيسكي قد أرسله لاصطحاب شامل إليه بعد قبوله الاستسلام. ولم تنطلق رصاصة بويسغر نحو شامل لسبب بسيط أوضحه شامل بعد سنوات من استسلامه حيث سأله البعض عن مخاطرته الجسيمة بالسير نحو الجيش الروسي للاستسلام رغم أنه كان هناك مسدسا مصوبا نحوه، حيث أجاب شامل:

«اللحظة الوحيدة التي كان يمكن لبويسغر أن يقتلني خلالها هو

عندما كنت مواجها له، ولكن بعد أن أدرت ظهري له فقد علمت بأن الرصاصة لن تنطلق في ظهري لان الفرسان الشيشان وبحكم معرفتي الطويلة بهم، لا يمكن أن يقتلوا من الخلف».

وبعد أن وصل شامل إلى الصخرة التي كان يجلس عليها الامير بارياتنيسكي وحوله أركان حربه، ترجل شامل عن فرسه وتقدم نحو بارياتنيسكي وقال:

«أيها الامير: لقد وثقت بوعدك وأتيت إليك مع عائلتي وأقربائي وإننا نثق بأنك ستسمح لنا بالسفر إلى مكة. أبارك لك حكمك للداغستان وأرغب من القلب سيطرة حُكم القيصر على سكان الجبال وازدهاره وأقدم لك سيفي لانك المنتصر».

وكانت إجابة الامير بارياتنيسكي:

«سأوجهك الى عاهل الامبراطورية دون تأخير، وسيكون معك واحد من كبار ضباطي. أما الآن. فأنت أسيري، وسيدبر الكولونيل لازاريف أمرك، وأمر عيالك في المعسكر». (من كتاب عبر دروب الجبال، ص ٢٣٠».

وبالفعل، تم إرسال شامل الى سان بطرسبرج، عاصمة القيصر نيكولاس الثاني والذي أكرم وفادة شامل وأقام له حفلات التكريم في كثير من المدن الروسية وخصص له ولعائلته خمسة عشر ألف روبل كراتب سنوي. وبقي شامل في ضيافة القيصر في مدينة صغيرة تسمى كالوغا وهي إحدى الضواحي الجنوبية لمدينة موسكو، وفي عام ١٨٦٦م أقسم شامل ومن حوله عائلته وأتباعه المقربين الذين رافقوه بعد استسلامه، يمين الولاء للقيصر الكسندر الثاني وأمام جمع غفير وذلك بناء على رغبة شامل نفسه والذي أراد أن يُظهر

للقيصر امتنانه للمعاملة الحسنة التي لقيها من القيصر بعد استسلامه كما أن ابنه الاصغر محمد شفي كان قد أصبح ضابطا في الجيش القيصري عام ١٨٦٢م، تماماً كما كان شقيقه الاكبر جمال الدين بعد أن أصبح رهينة بيد الروس عام ١٨٣٩م وقضى سنوات طويلة بينهم ليصبح شابا ومؤهلاً للخدمة العسكرية.

أما غازي محمد، فقد بقي حول والده ولم يفارقه لحظة واحدة. وفي آذار عام ١٨٧٠م وعندما بلغ شامل الرابعة والسبعين من عمره سمح له القيصر المغادرة إلى مكة شريطة أن يبقى ولده غازي محمد في روسيا. وغادر شامل إلى مكة مرورا بتركيا حيث استقبله السلطان عبدالعزيز كضيف رسمي في اسطنبول وذلك لاهداف سياسية بالدرجة الاولى، حيث أرسله بعد فترة إلى القاهرة ليتوسط بين القاهرة واسطنبول في خلاف حاد بين الاثنين، وقام شامل بالمهمة والتي تكللت بالنجاح.

وبعد عودته من القاهرة، غادر شامل إلى مكة حيث قضى أوقاته في العبادة متنقلا بين مكة والمدينة، لكنه استقر في النهاية بالمدينة ونزل ضيفا على الشيخ أحمد الرفاعي. وفي يناير ١٨٧١م قرر شامل أن يؤدي فريضة الحج لآخر مرة وتحركت القافلة من المدينة، ولكن في اليوم التالي للرحلة، تعثر الجمل الذي كان يحمله، وسقط شامل من فوق الجمل وأصيب إصابات جسيمة نظراً لكبر سنه، فعادت القافلة للمدينة. ولم يُعمّر شامل بعدها طويلا حيث توفي في المدينة في الرابع من فبراير عام ١٨٧١م الموافق ٢٥ ذي القعدة ١٢٨٧ للهجرة، وذلك قبل صلاة المغرب بقليل، وتم دفن الامام شامل في المدينة المنورة. (من كتاب سيوف الجنة، ص ٢٥٧- ٢٥٨).

استمرار المقاومة في شمال القوقاز

مع أن استسلام شامل عام ١٨٥٩م، أنهى من ناحية رسمية حرب القوقاز الاولى، إلا أنه من ناحية فعلية فإن الحرب استمرت لغاية ١٨٦٤م حيث تم نهائيا إخضاع بلاد الشيشان وكذلك شراكسة البحر الاسود.

المقاومة في بلاد الشيشان استمرت على شكل حرب عصابات أو حروب الاوبراك كما سمّاها الروس حيث إن كلمة أوبراك باللغة الروسية تعني قاطع طريق أو رجل عصابات.

حرب العصابات هذه قادها بويسغر وأتابي وعُوما، وسولتمرد القادة الميدانيين الذين كانوا مع شامل في غونيب، فقد استطاعوا ليلا، ومعهم نفر قليل من أتباعهم اختراق الحصار الروسي المفروض حول غونيب وشقوا طريقهم بالقوة بين صفوف الروس واستطاعو اختراقها ثم الاختفاء عن أعين الروس داخل الغابات الكثيفة حول غونيب ليظهروا بعد أيام في بلاد الشيشان حيث لجأوا للجبال وبدأوا حرب عصابات استمرت حتى عام ١٨٦١م ورفضوا إلقاء السلاح، لكن الروس تمكنوا في النهاية من محاصرة بويسغر في إحدى الكهوف الجبلية في شرق الشيشان، وكان بويسغر قد التجأ للكهف بعد إصابته بجراح بليغة في إحدى غاراته، وكان معه في الكهف ابنته وحفيده الصغيرة واقتحم الجنود الروس الكهف وقبضوا على بويسغر وتم شنقه في مدينة خسو- يورث في شمال شرق بلاد الشيشان وهي الآن تتبع الداغستان بعد أن ضمها ستالين لها عام ١٩٤٤م.

أما أتابي وعوما، فبعد شنق بويسغر والقضاء على أتباعه انضم لهم زميل بويسغر سولتمرد واستمروا في المقاومة في منطقة الارغون لكن في النهاية سلموا أنفسهم للروس والذين قاموا بنفيهم خارج بلاد الشيشان الى خاركوف وسمولنسك.

أما الشراكسة في منطقة الكوبان، قرب سواحل البحر الاسود، فإن ثورتهم أخمدت بقسوة عام ١٨٦٤م بعد أن تفرغ لها الروس وأعدم زعماؤها كما تم تهجير غالبية الشعب الشركسي خارج بلادهم حيث غادر ستمائة ألف شركسي بلادهم إلى تركيا في هجرة جماعية لقي فيها الكثيرون حتفهم بسبب العواصف البحرية أو البرد والجوع. ومن تركيا انتشر الشراكسة في سوريا والاردن لكان الغالبية منهم بقيت في تركيا والتي رحبت بهم لاغراض سياسية وذلك لاستخدامهم كجنود ضد دول البلقان التي كانت قد بدأت ثورتها ضد الحكم التركي.

محاولات تهجير الشيشان

حاول الروس، وبالتنسيق مع تركيا، دفع الشيشان للهجرة وذلك لاسباب مختلفة حيث أراد الروس اخلاء بلاد الشيشان من هذا الشعب العنيد ودفعه للرحيل خارج روسيا مثل الشراكسة، أما تركيا فأرادت أن تستغل شجاعة الشيشان وتمرسهم بالحرب في إخضاع دول البلقان، إلى جانب الشراكسة. (من كتاب في سبيل الحرية، ص ٦٦).

وقد كلفت الحكومة الروسية جنرال من الاستين (سكان أوسيتيا الشمالية والجنوبية) حلفاء الروس في القوقاز، واسمه موسى كونداخوف، بعملية تهجير الشيشان وقام كونداخوف بالاتصال بالحكومة التركية والتي أبدت موافقتها على «استقبال» المهاجرين الشيشان والشراكسة لكن محاولة تهجير الشيشان فشلت بسبب ظهور معارضة شديدة بين الشيشان لترك بلادهم، وقاد حملة المعارضة هذه رجل دين اسمه كونت- حجا والذي كان عالما دينيا وزعيما للطريقة القادرية في بلاد الشيشان حيث جمع كونت- حجا زعماء القبائل الشيشانية وخاطبهم قائلاً:

«إذا كان رأس هذا الجبل الذي أقف عليه، حدا فاصلا بين وطني وبلاد الهجرة، وسقطت ميتا، فإنني سأجتهد للسقوط داخل حدود بلدي ووطني. إن كل من يترك أرضه للكفار، لتفريغ بلاد المسلمين وتقليصها بدلا من الصمود فيها، يعتبر موليا للادبار بلا رجعة». (من كتاب عبر دروب الجبال، ص ٢٨٩).

وقد ضاق كوندوخوف ذرعاً بنشاط كونت حجا ضد سياسة التهجير ونظرا لمنزلته الدينية الرفيعة بين الشيشان، فقد أحجمت القيادة الروسية عن قمعه بالقوة خوفاً من ثورة شاملة في بلاد الشيشان ولهذا لم تتعرض له الحكومة القيصرية الروسية. ولكن حدث في نهاية عام ١٨٦٤م أن سافر كونت حجا الى الحج لكن بعد تخطيه الحدود الروسية، قادما من اسطنبول، اعتقلته الحكومة الروسية وأرسلته الى سجن نائي حيث لم يره أحد بعد ذلك.

ونتيجة لفشل ثورات الشيشان أعوام ١٨٧٧م وكذلك عام ١٨٩٩م وعام ١٩٠١م فقد هاجر عدد قليل من الشيشان الى تركيا ومنها لسوريا والاردن والعراق، لكن الغالبية العظمى من الشعب الشيشاني بقيت في بلادها وبالتالي فإن الشيشان هم الآن أكبر شعوب شمال القوقاز من حيث العدد، علما بأن بعض شيوخ الدين مثل بهل تلمرزه الزنادقي، هاجر مع اتباعه الى قرية بهلي في الاناضول عام ١٨٥٨م أي قبل سقوط شامل بسنة واحدة، ومن الاناضول وصل قسم منهم الى شمال سوريا ومنطقة الجولان ودمشق.

أما أكبر هجرات الشيشان الى تركيا وبلاد الشام فقد كانت بين أعوام ١٨٩٩ - ١٩٠١م والذين هاجروا كانوا أتباع الطريقة النقشبندية مع شيخهم محمد آمر النوراني وتفرق أكثرهم في تركيا وسوريا بينما وصل للاردن منهم نحو سبعين أسرة.

وبين أعوام ١٩١٤ - ١٩٤٥م هاجر قسم قليل من الشيشان إلى أوروبا والولايات المتحدة وكازخستان ولكن إما لكونهم منفيين أو هرباً من أحكام بالاعدام صدرت بحقهم سواء من الحكم القيصري أو الحكم الشيوعي والذي قام على أنقاض الحكم القيصري بعد نجاح ثورة اكتوبر البلشفية عام ١٩١٧م.

خاتمة

أسباب انتصار الروس في حرب القوقاز

هناك مجموعة من الاسباب المتداخلة والتي أدت مجتمعة إلى نجاح القوات القيصرية في احتلال شمال القوقاز، وهذه الاسباب يمكن تلخيصها بما يلي:

١- تفوق روسيا القيصرية من حيث العدد والعتاد على شعوب شمال القوقاز والتي كانت تحارب بالسيف والبندقية القديمة ضد جيش محترف يمتلك المدفعية الثقيلة والخبرة العسكرية التي اكتسبها في حروبه في أوروبا وبشكل خاص ضد نابليون.

٢- المساعدة الداخلية التي توفرت للقوات القيصرية في القوقاز والتي تمثلت بجورجيا وأرمينيا وبعض شعوب شمال القوقاز مثل الاوستين وبعض الامراء المحليين في الداغستان، وشراكسة القبرطاي، إضافة لشعوب القوازق التي كانت تسكن على ضفاف نهر التيرك الفاصل بين روسيا القيصرية وشمال القوقاز.

هذه المساعدة الداخلية وفرت للقياصرة مزايا استراتيجية وعسكرية تتمثل بما يلي:

أ) قواعد عسكرية في قلب منطقة القوقاز بحكم الموقع الجغرافي لهذه الشعوب.

ب) مقاتلين وجواسيس وأدلاء ضمن مناطق العدو.

٣- عدم دعم ومساندة تركيا العثمانية وإيران الصفوية لشعوب

شمال القوقاز واللتان كانتا تطمعان في «احتلال» شمال القوقاز وفرض هيمنتها على شعوبها بدلا من مساندتها عسكريا في دفاعها عن حريتها ضد الاحتلال القيصري. بالنسبة لايران الصفوية فإن اهتمامها انحصر في أذربيجان والتي بقيت خانيات تابعة لها إلى أن تمكن الجيش القيصري من طردها منها عام ١٨٢٨م. أما تركيا العثمانية، فإن دعمها اقتصر على شراكسة البحر الاسود وحتى هذا الدعم كان من باب إثارة القلاقل والاضطرابات لاستنزاف القوات العسكرية الروسية أكثر منه مساعدة قيمة للشراكسة تُمكنهم من حماية استقلال بلادهم وعدم سقوطها فريسة سهلة للاحتلال الروسي القيصري.

وبالتأكيد، لو كانت تركيا العثمانية قامت بالتنسيق مع الشراكسة ومع شامل في الداغستان وبلاد الشيشان ومدت لهم يد المساعدة على شكل أسلحة وخبراء عسكريين وبالجيوش النظامية المسلحة بالمدفعية الثقيلة، فإن روسيا القيصرية ماكان يمكن لها أن تحتل شمال القوقاز.

٤- تنافس تركيا العثمانية وإيران الصفوية فيما بينها بدلا من التنسيق فيما بينهما ضد القوات القيصرية والتي كان من الصعب جدا عليها إحراز انتصار على مثل هذا التحالف الاسلامي، خصوصا وأن الدولتين الاسلاميتين كانتا تملكان قوة عسكرية حديثة وضخمة وللاسف الشديد، فإن الاختلاف المذهبي بين السنة والشيعة في تركيا وإيران الصفوية، أخذ أولوية على صراعهما ضد العدو المشترك المتمثل بروسيا القيصرية والتي استغلت هذا الاختلال على

أكمل وجه لصالحها واستغلته في ضرب الدولتين الاسلاميتين ببعضهما البعض وبالتالي تمكنت من الاستفراد بهما كل على حده .

٥- عدم التنسيق بين شامل وشراكسة القبرطاي وشراكسة سواحل البحر الاسود حيث خاض الجميع حروبهم الخاصة المنفردة ضد القوات القيصرية .

٦- التعصب الديني الشديد للحركة المريدية والتي تعاملت بقسوة مع الامراء المحليين والشعوب المجاورة مما أدى إلى نفور هؤلاء من الحركة المريدية ورفضوا الانضمام والخضوع لها ضمن تعاليم وقوانين المريدية، مع أنهم كانوا يبغضون روسيا القيصرية وعلى استعداد لمحاربتها، ولكن ضمن شروطهم الخاصة والتي لا تنسجم مع تعاليم المريدية القاسية .

٧- سياسة روسيا اللبقة في التعامل مع الامراء المحليين والتي قامت على إبقاء الزعماء المحليين في مراكزهم ودعمهم لهم بالمال وتعهدهم لهم بالحماية مقابل خضوع وتعاون هؤلاء مع القوات القيصرية .

٨- مزايا قيادية سلبية في شامل كقائد والتي تمثلت بما يلي :

أ/ دكتاتورية في اتخاذ القرارات وعدم ملائمة هذا الاسلوب لطبيعة شعوب شمال القوقاز وبشكل خاص الشيشان والداغستان، فعلى سبيل المثال، فإن قرار شامل بتعيين ابنه غازي محمد وريثاً لزعامته الدينية والسياسية، كان قرارا يتعارض تماما مع طبيعة شعوب شمال القوقاز وبشكل خاص الداغستان والشيشان والذين تبرز موصفات العلم والشجاعة في القتال، على رأس مواصفات

الزعيم الذي يمكن أن ينال الرضى والقبول بين هذين الشعبين . وبالتأكيد ، فإن غازي محمد لم يكن يتمتع لا بميزة العلم والمعرفة في شؤون الدين ، ولا بميزة الشجاعة والاقدام والفروسية التي يعشقها شعوب شمال القوقاز قبل أي شيء آخر ، حتى المعرفة الدينية .

ورغم معرفة شامل بعدم أهلية غازي محمد للزعامة ، فإنه قام بإعلانه وريثاً له وكانت النتيجة ، حدوث انشقاق في صفوفه وخسارة حركة المقاومة ضد الروس ، واحدا من أبرز قادتها وهو الحاج مراد ، كما أدى القرار إلى اقتناع الشيشان نهائيا ، بأن شامل لم يكن هو القائد المناسب لهم لانه يضع مصالحه الشخصية فوق مصالح حركة المقاومة المسلحة ضد الغزاة الروس .

ب/ تدخل شامل في العادات المحلية بين الشيشان والتي لها رواسب وجذور قوية بين الشعب الشيشاني ، كما حدث عندما قتل نائب شامل شعيب في إحدى القرى الشيشانية نتيجة ثأر شخصي قديم بين شعيب وإحدى العائلات الشيشانية .

فعندما قتل شعيب ، قام شامب بإرسال مئتي فارس إلى القرية التي قُتل فيها شعيب ، وذلك لاخذ أسرى من وجهاء القرية ، لانهم أخفقوا في منع جريمة القتل . وكان تدخل شامل في مقتل شعيب ، يخالف العادات المتبعة وبالتالي فقد رد سكان القرية رجال شامل بقوة السلاح وعندها جهز شامل قوة وسار بنفسه للقرية وأقنع السكان بالاستسلام ثم أجهز عليهم عن بكرة أبيهم بما فيهم الاطفال الرضع والشيوخ وكان مجموعهم نحو مائة أسرة وضعوا في بيوتهم ثم أُحرقت هذه البيوت بمن فيها .

هذه القسوة المفرطة من شامل وتدخله في العادات المحلية كان له أثر كبير في تخلي كثير من الشيشان عن مساندته سواء على المدى القصير أو البعيد.

ج/ احجام شامل عن الدخول في مواجهة شاملة مع القوات القيصرية في المواقف التي تتطلب ذلك كما حدث في غزوة للقبارطاي حين التقى في إحدى مراحل الحملة بالجنرال فريتاغ والذي كانت قواته أقل بنسبة ١ : ٥ر٢ من قوات شامل ولم تكن هناك أية قوات روسية قريبة في وسعها التدخل لصالح فريتاغ وبالتالي كان يمكن تدمير هذه القوات مما كان سيساعد على نجاح الحملة خصوصا وأن تردد زعماء القبارطاي في مساندته، كان بالدرجة الاولى خوفهم من قوات الجنرال فريتاغ وانتقامها، كما أن احتلال ممر داريال والذي يتحكم في طرق الامدادات الروسية سواء من الشمال أي سان بطرسبرج العاصمة القيصرية أو من الجنوب، أي جورجيا حيث كانت القيادة العسكريةالرئيسة للقوات الروسية في القوقاز والتي كانت ستُفصل عن الشمال لو نجحت قوات شامل في احتلال ممر داريال.

د) انحياز شامل الدائم في التعامل مع مؤيديه إلى أصدقائه الداغستان واقتصار المحيطين به عليهم رغم أن الشيشان كانوا غالبية المقاتلين والقادة الميدانيين في جيشه.

أخيرا:

موقف الدول الكبرى في ذلك الوقت، وبشكل خاص بريطانيا والتي كانت تخشى على نفوذها ومصالحها في الهند من الاطماع

الروسية القيصرية، كان موقفاً سلبياً من شعوب شمال القوقاز رغم محاولات بعض الساسة البريطانيين إقناع وحث حكومتهم على دعم نضال شعوب شمال القوقاز ضد الاطماع القيصرية. ولو ساندت بريطانيا شعوب شمال القوقاز ضد عدوهم المشترك، خصوصا في حرب القرم عام ١٨٥٤م حيث تم تدمير الاسطول الروسي وكان بإمكان بريطانيا وحليفتها فرنسا، إنزال قوات عسكرية في القوقاز الشمالي، إلى جانب القوات التركية، وعندها كان من المؤكد أن تُهزم القوات الروسية في القوقاز والتي كان شامل والشراكسة قد أنهكوها بحرب استنزاف طويلة. ولعل الهوية الدينية لشمال القوقاز كانت سبب إحجام بريطانيا عن مد يد العون لشعوب شمال القوقاز، حيث إنه بعد نجاح القوات القيصرية في دحر شامل عام ١٨٥٩م، فإنها تفرغت لمخططها التوسعي في آسيا الوسطى حيث قامت باحتلال مايُعرف الآن بتركمستان وكازخستان وأوزبكستان وتركمانستان وقيرغيزيا وذلك ابتداء من عام ١٨٦٤م كما وأن تركيا وإيران الصفوية، كانت الخاسرتين، إلى جانب بريطانيا، بنجاح القياصرة الروس في احتلال آسيا الوسطى.

مراجع الكتاب

1 - Avtorkhanv, A. Broxup, B. Bryan, F. Gammer, M. Henze, p. and Quelquejay, C. (1972).

2 - The North Caucasus Barrier: The Russian Advance Towards the Muslim World.

Hurst and Company, London.

3 - Baddley, John. (1908).

The Russian Conquest of the Caucasus.

Longman,s Green and Co. London.

ترجمه للعربية السيد صادق عوده- الدكتور طه سلطان مراد .

4 - Bennigsen, A. (1988) March.

Four Scripts of Islam in the Caucasus.

Munich, March, 17 - 18.

5 - Blanch, Lasley. (1984).

The Sabres of Paradise.

Carrol and Craf, Ine. New York.

6 - Chechenia. (1992).

Report of an International Alert Fact Finding Mission.

International Alert: IGlyyn Street, London. SEII 5HT. UK.

7 - Conquest, Robert. (1970)

The Nation Killers.

Macmillan and Co. LTD. London.

ترجمه للعربية عام ١٩٨٧م صادق عوده- الدكتور طه سلطان مراد .

٨- أبوذر، أيدميرو (١٩٦٨م).
«وصية شيشاني لاخيه». الجزء الاول من كتاب «في سبيل الحرية» صدر في غروزني باللغة الشيشانية/ ترجمة للعربية السيد حميد بونس، صوليح/ الاردن.
٩- أبوذر، أيدميرو (١٩٧٥م).
«عبر دروب الجبال».
صدر في غروزني وترجمه للعربية عام ١٩٨٦م السيد حميد يونس، صويلح/ الاردن.
١٠- كتلو، طارق (١٩٧٨م).
الاذمام منصور: الاذمام الاول للشيشان.
صدر في اسطنبول باللغة التركية وترجمه للعربية عام ١٩٩١م السيدان د. أحمد بولاد وحميد يونس.
١١- بليتشكه، برونو (١٩٢٩م).
الشيشان: بحث في شعوب القوقاز الشمالي.
بناءً على رحلات أجريت في أعوام (١٩١٨- ١٩٢٠م) (١٩٢٧- ١٩٢٨م)، ترجمه من الالمانية للعربية د. أحمد زنداقي، حميد يونس.
الاصدار باللغة الالمانية: المعهد الجغرافي لجامعة كونغنربرغ.
الناشر: فريدركسون دي غرويتز وشركاهم: هامبورغ/ ألمانيا الاتحادية.

الفهرس

صدر من هذه السلسلة

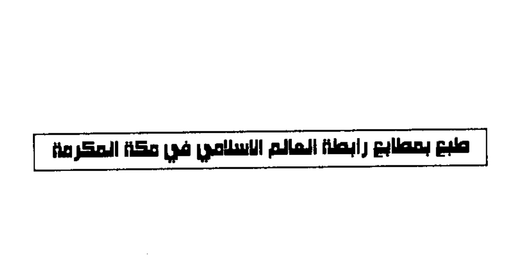
الرقم	العنوان	المؤلف
١	تأملات في سورة الفاتحة	**الدكتور حسن باجودة**
٢	الجهاد في الاسلام مراتبه ومطالبه	**الأستاذ أحمد محمد جمال**
٣	الرسول في كتابات المستشرقين	**الأستاذ نذير حمدان**
٤	الاسلام الفاتح	**الدكتور حسين مؤنس**
٥	وسائل مقاومة الغزو الفكري	**الدكتور حسان محمد مرزوق**
٦	السيرة النبوية في القرآن	**الدكتور عبد الصبور مرزوق**
٧	التخطيط للدعوة الاسلامية	**الدكتور محمد علي جريشة**
٨	صناعة الكتابة وتطورها في العصور الاسلامية	**الدكتور أحمد السيد دراج**
٩	التوعية الشاملة في الحج	**الأستاذ عبد الله بوقس**
١٠	الفقه الاسلامي آفاقه وتطوره	**الدكتور عباس حسن محمد**
١١	لمحات نفسية في القرآن الكريم	**د. عبد الحميد محمد الهاشمي**
١٢	السنة في مواجهة الأباطيل	**الأستاذ محمد طاهر حكيم**
١٣	مولود على الفطرة	**الأستاذ حسين أحمد حسون**
١٤	دور المسجد في الاسلام	**الأستاذ محمد علي مختار**
١٥	تاريخ القرآن الكريم	**الدكتور محمد سالم محيسن**
١٦	البيئة الادارية في الجاهلية وصدر الاسلام	**الأستاذ محمد محمود فرغلي**
١٧	حقوق المرأة في الإسلام	**د. محمد الصادق عفيفي**
١٨	القرآن لكريم كتاب أحكمت آياته [١]	**الأستاذ أحمد محمد جمال**
١٩	القراءات أحكامها ومصادرها	**د.شعبان محمد اسماعيل**
٢٠	المعاملات في الشريعة الاسلامية	**الدكتور عبد الستار السعيد**
٢١	الزكاة فلسفتها وأحكامها	**الدكتور علي محمد العماري**
٢٢	حقيقة الانسان بين القرآن وتصور العلوم	**الدكتور أبو اليزيد العجمي**
٢٣	الأقليات المسلمة في آسيا وأستراليا	**الأستاذ سيد عبد المجيد بكر**
٢٤	الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر	**الدكتور عدنان محمد وزان**
٢٥	الإسلام والحركات الهدامة	**معالي عبد الحميد حمودة**
٢٦	تربية النشء في ظل الاسلام	**الدكتور محمد محمود عمارة**
٢٧	مفهوم ومنهج الاقتصاد الاسلامي	**د. محمد شوقي الفنجري**
٢٨	وحي الله	**د. حسن ضياء الدين عتر**
٢٩	حقوق الانسان وواجباته في القرآن	**حسن أحمد عبد الرحمن عابدين**
٣٠	المنهج الإسلامي في تعليم العلوم الطبيعية	**الأستاذ محمد عمر القصار**

٣١- القرآن كتاب أحكمت آياته [٢] --------- **الأستاذ أحمد محمد جمال**
٣٢- الدعوة في الاسلام عقيدة ومنهج ------- **الدكتور السيد رزق الطويل**
٣٣- الاعلام في المجتمع الاسلامي -------- **الأستاذ حامد عبد الواحد**
٣٤- الالتزام الديني منهج وسط --------- **عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني**
٣٥- التربية النفسية في المنهج الاسلامي ----- **الدكتور حسن الشرقاوي**
٣٦- الاسلام والعلاقات الدولية --------- **د. محمد الصادق عفيفي**
٣٧- العسكرية الاسلامية ونهضتنا الحضارية - **اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ**
٣٨- معاني الأخوة في الإسلام ومقاصدها ---- **الدكتور محمود محمد بابللي**
٣٩- النهج الحديث في مختصر علوم الحديث -- **الدكتور علي محمد نصر**
٤٠- من التراث الاقتصادي للمسلمين ------ **د. محمد رفعت العوضي**
٤١- المفاهيم الاقتصادية في الاسلام ------- **د. عبد العليم عبد الرحمن خضر**
٤٢- الأقليات المسلمة في أفريقيا ---------- **الأستاذ سيد عبد المجيد بكر**
٤٣- الأقليات المسلمة في أوروبا ---------- **الأستاذ سيد عبد المجيد بكر**
٤٤- الأقليات المسلمة في الأمريكتين -------- **الأستاذ سيد عبد المجيد بكر**
٤٥- الطريق إلى النصر ------------- **الأستاذ محمد عبد الله فودة**
٤٦- الاسلام دعوة حق -------------- **الدكتور السيد رزق الطويل**
٤٧- الاسلام والنظر في آيات الله الكونية ----- **د. محمد عبد الله الشرقاوي**
٤٨- دحض مفتريات -------------- **د. البدراوي عبد الوهاب زهران**
٤٩- المجاهدون في فطان ------------ **الأستاذ محمد ضياء شهاب**
٥٠- معجزة خلق الانسان ------------ **د. نبيه عبد الرحمن عثمان**
٥١- مفهوم القيادة في إطار العقيدة الاسلامية -- **د. سيد عبد الحميد مرسي**
٥٢- ما يختلف فيه الاسلام عن الفكر الغربي والماركسي - **الأستاذ أنور الجندي**
٥٣- الشورى سلوك والتزام ------------ **لدكتور محمود محمد بابلي**
٥٤- الصبر في ضوء الكتاب والسنة ------- **أسماء عمر فدعق**
٥٥- مدخل إلى تحصين الأمة ---------- **الدكتور أحمد محمد الخراط**
٥٦- القرآن كتاب أحكمت آياته [٣]--------- **الأستاذ أحمد محمد جمال**
٥٧- كيف تكون خطيبًا------------- **الشيخ عبد الرحمن خلف**
٥٨- الزواج بغير المسلمين------------ **الشيخ حسن خالد**
٥٩- نظرات في قصص القرآن----------- **محمد قطب عبد العال**
٦٠- اللسان العربي والاسلامي معاً في مواجهة التحديات **الدكتور السيد رزق الطويل**

٦١-	بين علم آدم والعلم الحديث	الأستاذ محمد شهاب الدين الندوي
٦٢-	المجتمع الاسلامي وحقوق الانسان	د. محمد الصادق عفيفي
٦٣-	من التراث الاقتصادي للمسلمين [٢]	الدكتور رفعت العوضي
٦٤-	تصحيح مفاهيم حول التوكل والجهاد	الأستاذ عبد الرحمن حسن حبنكة
٦٥-	لماذا وكيف أسلمت [١]	الشهيد أحمد سامي عبد الله
٦٦-	أصلح الأديان عقيدة وشريعة	الأستاذ عبد الغفور عطار
٦٧-	العدل والتسامح الاسلامي	الأستاذ أحمد المخزنجي
٦٨-	القرآن كتاب أحكمت آياته [٤]	الأستاذ أحمد محمد جمال
٦٩-	الحريات والحقوق الاسلامية	محمد رجاء حنفي عبد المتجلي
٧٠-	الانسان الروح والعقل والنفس	د. نبيه عبد الرحمن عثمان
٧١-	كتاب موقف الجمهوريين من السنة النبوية	الدكتور شوقي بشير
٧٢-	الاسلام وغزو الفضاء	الشيخ محمد سويد
٧٣-	تأملات قرآنية	الدكتورة عصمة الدين كركر
٧٤-	الماسونية سرطان الأمم	الأستاذ أبو إسلام أحمد عبد الله
٧٥-	المرأة بين الجاهلية والاسلام	الأستاذ سعد صادق محمد
٧٦-	استخلاف آدم عليه السلام	الدكتور على محمد نصر
٧٧-	نظرات في قصص القرآن [٢]	محمد قطب عبد العال
٧٨-	لماذا وكيف أسلمت [٢]	الشهيد أحمد سامي عبد الله
٧٩-	كيف نُدَرِّس القرآن لأبنائنا	الأستاذ سراج محمد وزان
٨٠-	الدعوة والدعاة .. مسؤولية وتاريخ	الشيخ أبو الحسن الندوي
٨١-	كيف بدأ الخلق	الأستاذ عيسى العرباوي
٨٢-	خطوات على طريق الدعوة	الأستاذ أحمد محمد جمال
٨٣-	المرأة المسلمة بين نظرتين	الأستاذ صالح محمد جمال
٨٤-	المبادىء الاجتماعية في الاسلام	محمد رجاء حنفي عبد المتجلى
٨٥-	التآمر الصهيوني الصليبي على الاسلام	د. ابراهيم حمدان علي
٨٦-	الحقوق المتقابلة	د. عبد الله محمد سعيد
٨٧-	من حديث القرآن على الانسان	د. على محمد حسن العماري
٨٨-	نور من القرآن في طريق الدعوة والدعاة	محمد الحسين أبو سم
٨٩-	أسلوب جديد في حرب الاسلام	جمعان عايض الزهراني
٩٠-	القضاء في الاسلام	سليمان محمد العيضي

الرقم	العنوان	المؤلف
٩١	دولة الباطل في فلسطين	الشيخ القاضي محمد سويد
٩٢	المنظور الاسلامي لمشكلة الغذاء وتحديد النسل	د. حلمي عبد المنعم جابر
٩٣	التهجير الصيني في تركستان الشرقية	رحمة الله رحمتي
٩٤	الفطرة وقيمة العمل في الاسلام	اسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي
٩٥	أوصيكم بالشباب خيراً	الأستاذ أحمد محمد جمال
٩٦	المسلمون في دوائر النسيان	أسماء أبو بكر محمد
٩٧	من خصائص الاعلام الاسلامي	محمد خير رمضان يوسف
٩٨	الحرية الاقتصادية في الاسلام	د. محمود محمد بابللي
٩٩	من جماليات التصوير في القرآن الكريم	الأستاذ محمد قطب عبد العال
١٠٠	مواقف من سيرة الرسول	الأستاذ محمد الأمين
١٠١	اللسان العربي بين الانحسار والانتشار	الأستاذ محمد حسنين خلاف
١٠٢	اخطار حول الاسلام	الأستاذ هاشم عقيل عزوز
١٠٣	صلاة الجماعة	د. عبد الله محمد سعيد
١٠٤	المستشرقون والقرآن	د. اسماعيل سالم عبد العال
١٠٥	مستقبل الاسلام بعد سقوط الشيوعية	الأستاذ أنور الجندي
١٠٦	الاقتصاد الاسلامي هو البديل	د. شوقي أحمد دنيا
١٠٧	توجيه وارشاد الشباب المسلم نحو قضاء وقت الفراغ	عبد المجيد أحمد منصور
١٠٨	المخدرات مضارها على الدين والدنيا	الدكتور ياسين الخطيب
١٠٩	في ظلال سيرة الرسول ﷺ	الأستاذ أحمد المخزنجي
١١٠	أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	محمود محمد كمال عبد المطلب
١١١	زينة المرأة بين الاباحة والتحريم	د. حياة محمد على عثمان خفاجي
١١٢	التربية الاسلامية كيف نرغبها لأبنائنا	د. سراج محمد عبد العزيز وزان
١١٣	النموذج العصري للجهاد الأفغاني	عبد رب الرسول سياف
١١٤	المسلمون حديث ذو شجون	الأستاذ أحمد محمد جمال
١١٥	الترف وأثره في المجتمع من خلال القرآن الكريم	ناصر عبد الله العمار
١١٦	المسلمون في بورما .. التاريخ والتحديات	نورالاسلام بن جعفر علىآل فايز
١١٧	آثار التبشير والاستشراق على الشباب المسلم	د. جابر المتولي تميمة
١١٨	اللباس في الاسلام	أحمد بن محمد المهدي
١١٩	أسس النظام المالي في الاسلام	الأستاذ محمد أبو الليث
١٢٠	المستشرقون والقرآن [٢]	د. اسماعيل سالم عبد العال

الرقم	العنوان	المؤلف
١٢١	الإسلام هو الحل	القاضي الشيخ محمد سويد
١٢٢	نظرات في قصص القرآن	الأستاذ محمد قطب عبد العال
١٢٣	من حصاد الفكر الإسلامي	د. محمد محي الدين سالم
١٢٤	خواطر اسلامية	الأستاذ ساري محمد الزهراني
١٢٥	الإسلام ومكافحة المخدرات	الأستاذ اسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي
١٢٦	دروس تربوية نبوية	الأستاذ صالح أبو عراد الشهري
١٢٧	الشباب المسلم بين تجربة الماضي وآفاق المستقبل	د. عبد الحليم عويس
١٢٨	من سمات الأدب الإسلامي	د. مصطفى عبد الواحد
١٢٩	خطوات على طريق الدعوة [الجزء الأول]	الأستاذ أحمد محمد جمال
١٣٠	خطوات على طريق الدعوة [الجزء الثاني]	الأستاذ أحمد محمد جمال
١٣١	المسجد البابري قضية لا تنسى	عبد الباسط عز الدين
١٣٢	التدريس في مدرسة النبوة	د. سراج عبد العزيز الوزان
١٣٣	الإعلام الإسلامي ووسائل التصال الحديث	الأستاذ ابراهيم اسماعيل
١٣٤	تسخير العلم والعمل لمجد الإسلام	د. حسن محمد باجودة
١٣٥	منهاج الداعية	الأستاذ أحمد أبو زيد
١٣٦	في جنوب الصين	الشيخ محمد بن ناصر العبودي
١٣٧	التنمية والبيئة دراسة مقارنة	د. شوقي أحمد دنيا
١٣٨	الشريعة الإسلامية شريعة العدل والفضل	د. محمود محمد بابللي
١٣٩	سقوط الأيديولوجيات	الأستاذ أنور الجندي
١٤٠	الطفل في الإسلام	الأستاذ محمود الشرقاوي
١٤١	التوحيد فطرة الله التي فطر الناس عليها	فتحي بن عبد الفضيل بن علي
١٤٢	لمحات من الطب الإسلامي	د. حياة محمد علي جفاجي
١٤٣	الإسلام والمسلمون في ألبانيا	د. السيد محمد يونس
١٤٤	أحمد محمد جمال (رحمه الله)	مجموعة من الأساتذة الكُتّاب
١٤٥	الهجوم على الإسلام	الأستاذ أحمد أبو زيد
١٤٦	الإسلام والنظام العالمي الجديد	د. حامد أحمد الرفاعي
١٤٧	من جماليات التصوير في القرآن الكريم	محمد قطب عبد العال
١٤٨	الواقع الاستهلاكي للعالم الإسلامي	زيد بن محمد الرماني
١٤٩	الماسونية والمرأة	جمعان بن عايض الزهراني
١٥٠	جوانب من عظمة الإسلام	اسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي


طبع بمطابع رابطة العالم الاسلامي في مكة المكرمة